سلسلة الخلفاء

عبد الملك بن مروان

وأسرته

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

سلسلة الخلفاء

٨



محمود شاكر

المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل النبيين والمرسلين جميعاً، محمد بن عبد الله، وعلى إخوانه رسل الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، *أما بعد* :

فإن المرحلة التاريخية التي امتدّت من نهاية العهد الراشدي عام ٤١هـ حتى قيام دولة بني العباس عام ١٣٢هـ يُطلق عليها العهد الأموي، ذلك لأن معظم الخلفاء كانوا من بني أُميّة، إن لم نقل جميعاً لا يشذّ منهم سوى الخليفة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما. غير أن هذه التسمية السياسية قد أوقعت المؤرخين في غلطٍ كبيرٍ، إذ عدّوا الخلفاء جميعهم من بني أُميّة، وأن الخليفة الذي لم يكن منهم إنما هو خارج على الجماعة، بل وأطلقوا على عهده «فتنة ابن الزبير» وبذا طغت التسمية السياسية على الخلافة الشرعية، حيث كان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، هو الخليفة

الشرعيّ، والذين قاموا يُناهضونه كانوا خارجين على الجماعة، وإن كانوا من بني أُميّة، وهما مروان بن الحكم، وابنه من بعده عبد الملك بن مروان، وقد وقع هذا الغلط من:

١ ـ إطلاق تسمية العهد الأموي على الحقبة التاريخية من ٤١ ـ ١٣٢هـ بما فيها عهد خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما.

٢ ـ الظنّ بأن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، كان خارجاً على خلافة يزيد بن معاوية، واستمرّ خروجه إلى ما بعدها، والحقيقة أنه لم يكن خارجاً، لم يُعلن هذا، ولم يقل بهذا، وإنما رفض إعطاء البيعة، واعتزل بمكة، وكان يقول: إنه عائذ بالبيت. وامتناعه عن البيعة لا ينقض الصفة الشرعية للخليفة.

٣ ـ البيعة المحلية التي تمّت لمروان بن الحكم في الجابية من جند الأردن بإمرة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي وبعض رجالات القبائل اليمانية في تلك الجهات من كلب، وغسّان، وجذام. ومعلوم أن البيعة المحلية لا تثبت شرعاً. على حين كان عبد الله بن الزبير قد بُويع بيعةً عامةً من مختلف الأمصار الإسلامية باستثناء جند الأردن، والبيعة العامة هي المعتبرة شرعاً، بل إن

مروان بن الحكم نفسه كان مُتّجهاً لبيعة عبد الله بن الزبير لولا أن التقى به عبيد الله بن زياد، وثناه عن عزمه، وشجّعه على أخذ البيعة لنفسه. ويجب أن نُلاحظ أن عبد الله بن الزبير عندما بُويع لم يكن هناك خليفة قائماً بالأمر، فيزيد بن معاوية كان قد توفي، وابنه معاوية بن يزيد قد تنازل عن الخلافة فبيعة عبد الله بن الزبير، شرعية وليس فيها خروج على جماعةٍ ولا مناهضة لخليفةٍ، على حين أن بيعة مروان بن الحكم المحلية كانت خروجاً على الجماعة حيث كان هناك خليفة قائماً بالأمر، وكانت تلك البيعة المحلية مناهضةً للخليفة الذي بُويع بيعةً شرعيةً.

إذن كان مروان بن الحكم من ناحيةٍ شرعيةٍ خارجاً على الجماعة مناهضاً للخليفة الشرعيّ، وكذا كان ابنه عبد الملك، حتى إذا تغلّب عبد الملك على الخليفة الشرعيّ عبد الله بن الزبير، وقتله، وبايع الناس عبد الملك فأصبح خليفةً شرعياً بالغلبة.

إن المدة من ١٤ ربيع الأول سنة أربعٍ وستين يوم وفاة الخليفة يزيد بن معاوية إلى ١٧ جمادىَ الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين يوم مقتل الخليفة عبد الله بن الزبير هي خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، من العهد

الأموي. وهذا ما يجب ملاحظته في هذا البحث، وما يجب تصحيحه عند المؤرخين.

نرجو من الله الكريم أن نكون قد وُفّقنا في إبداء الحقيقة، وإثبات الجانب الشرعي للخليفة. كما نرجو من الله السداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غُرّة شهر المحرم ١٤١٩هـ.

محمود شاكر

البَابُ الأَوَّل

عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوَانُ

الفصل الأول

نَشأة عَبْد المَلِك

وُلد عبد الملك سنة ستٍّ وعشرين في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكان أبوه مروان مُقرّباً من ابن عمّه، الخليفة عثمان. وقد تربّى تربيةً دينيةً علميةً.

شهد يوم الدار، يوم حُصر عثمان، رضي الله عنه، وكان عبد الملك يومها مع أبيه مروان، وهو ابن عشر سنين، وقد حفظ ما جرى، ووعى ما دار.

ولي أبوه مروان إمرة المدينة للمرة الأولى في خلافة معاوية بن أبي سفيان في أواخر عام واحدٍ وأربعين، وفي العام التالي سنة اثنتين وأربعين شتّا المسلمون بأرض الروم، وهو أول مشتى شتّوه بها، فاستعمل مُعاوية على أهل المدينة عبد الملك بن مروان، وهو يومئذٍ ابن ستّ عشرة سنةً، فركب عبد الملك بالناس البحر. وهذا يدلّ على نباهته وذيوع صيته حتى

وصل إلى الشام فاستعمله الخليفة، وهو في مثل هذه السنّ، كما يدلّ على تقدير من حوله له، واحترامهم له، ومعرفتهم إمكاناته المبكّرة حتى مشوا معه، وساروا وراءه، واقتدى به أهل المدينة، وفيهم العالم، وفيهم الخبير بشؤون الحرب، وذو المعرفة بتجارب الحياة، وقد قبلوا إمرته ومشوا في ركبه.

وغزا إفريقية تحت لواء مُعاوية بن حُديج السكوني[١] سنة إحدى وأربعين، وسار مع المجاهدين مرةً

---

(١) مُعاوية بن حُديج بن جفنة بن قتيرة، أبو نعيم، وأبو عبد الرحمن الكندي ثم السكوني: الأمير، قائد الكتائب، له صحبة ورواية عن النبي ﷺ. وروى أيضاً عن عمر، وأبي ذرٍّ، ومعاوية.
شهد معركة اليرموك، وشهد صفين مع معاوية. وولاّه معاوية جيشاً جهّزه إلى مصر، وكان واليها من قبل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، محمد بن أبي بكر الصديق، فاستطاع ابن حُديج دخول مصر، وأخذ البيعة من أهلها لمعاوية بن أبي سفيان.
ولي غزو المغرب مراتٍ، فتح بنزرت، وغزا صقلية، وآخر غزوة له للمغرب كانت سنة خمسين، وأعيد إلى ولاية مصر، ثم عُزل ثانيةً سنة إحدى وخمسين، وتوفي بها سنة اثنتين وخمسين.
كان أعور ذهبت عينه يوم دهقلة ببلاد النوبة، عاقلاً، حازماً، واسع العلم، مقداماً، وأمه كبشة بنت معدي كرب الشاعرة.

أخرى تحت لواء مُعاوية بن حُديج سنة خمسٍ وأربعين، ومشى على رأس ألف رجلٍ إلى (جلولاء)[1] ففتحها بعد حصارٍ. وانطلق على رأس بعث المدينة مع مُعاوية بن حُديج سنة خمسين، وعاد بعدئذٍ إلى المدينة فأقام بها.

وعُزل أبوه مروان عن المدينة سنة تسعٍ وأربعين، وتولّى الإمرة مكانه سعيد بن العاص حتى سنة أربعٍ وخمسين حيث أُعيد أبوه مروان للإمرة حتى سنة سبعٍ وخمسين حيث عُزل ثانيةً وتولّى إمرة المدينة مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وانتهت خلافة مُعاوية بوفاته سنة ستين والوليد أمير المدينة. ولم يعد مروان للإمرة بعدها، وإن كان يُستشار بالملمات، ويُؤخذ رأيه في بعض الموضوعات. وعبد الملك لم يزل هذه المدة كلها في المدينة لم يُغادرها إلا لغزوٍ كما ذكرنا أو لحجٍّ أو عُمرةٍ أو لحاجةٍ بسيطةٍ لا تستغرق سوى مدةٍ وجيزةٍ. واستمرّ ذلك حتى كانت خلافة يزيد، وكانت أيام الحرّة سنة أربعٍ وستين.

وثب أهل المدينة فأخرجوا عامل يزيد بن مُعاوية

---

(١) جلولاء: مدينة كانت عامرة قرب القيروان تبعد عنها مسافة أربعين كيلو متراً، وهي الآن أطلال يعرف مكانها عين جلولاء.

على مدينتهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان من المدينة، وأخرجوا معه بني أُميّة، وفيهم مروان بن الحكم، وابنه عبد الملك، فلقيهم مسلم بن عقبة بالطريق قد بعثه يزيد بن مُعاوية في جيشٍ إلى أهل المدينة، فرجع معه مروان، وابنه على حين استمرّ بقية بني أُمية في سيرهم إلى الشام حسب العهود التي أخذها عليهم أهل المدينة قبل أن يُغادرها.

تابع مروان بن الحكم سيره إلى المدينة مع جيش مسلم بن عقبة المرّيّ، أما عبد الملك فقد كان مجدوراً فتخلّف بـ (ذي خُشُب)، وأمر رسولاً أن ينزل بـ (مَخيض)، وهي فيما بين المدينة و (ذي خُشُب) على اثني عشر ميلاً من المدينة، وآخر يحضر الوقعة يأتيه بالخبر، وهو يخاف أن تكون الدولة لأهل المدينة، فبينا عبد الملك جالس في قصر مروان بـ (ذي خُشُب) يترقّب إذا رسوله قد جاء يلوّح بثوبه، فقال عبد الملك: إن هذا لبشير. فأتاه رسوله الذي كان بـ (مَخيض) يُخبره أن أهل المدينة قد قُتلوا، ودخلها أهل الشام، فسجد عبد الملك، ودخل المدينة بعد أن برأ.

ويُروى أن أهل المدينة كانوا قد أخذوا على بني أُميّة حين أخرجوهم، العهود والمواثيق أن لا يدلّوا على

عورةٍ لهم، ولا يُظاهروا عليهم عدوّاً، فلما لقيهم مسلم بن عقبة بوادي القرى قال مروان لابنه عبد الملك: ادخل عليه قبلي لعله يجتزئ بك مني. فدخل عليه عبد الملك، فقال له مسلم: هات ما عندك، أخبرني خبر الناس وكيف ترى، فقال: نعم. ثم أخبره بخبر أهل المدينة، ودلّه على عوراتهم، وكيف يُؤتون، ومن أين يُدخل عليهم، وأين ينزل. ثم دخل مروان فقال: إيه ما عندك؟ قال: أليس قد دخل عليك عبد الملك؟ قال: بلى، قال: فإذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني. قال: أجل. ثم قال مسلم: وأي رجل عبد الملك، قلّ ما كلّمت من رجال قريشٍ رجلاً به شِبْهاً.

وعن رجلٍ من همدان من وداعة من أهل الأردن قال: كنا مع مسلم بن عقبة مَقْدَمَهُ المدينة، فدخلنا حائطاً بذي المروة فإذا شابٌ حسن الوجه والهيئة قائم يصلّي، فطفنا في الحائط ساعةً، وفرغ من صلاته، فقال لي: يا عبد الله أمن هذا الجيش أنت؟ قلت: نعم. قال: أتؤمّون ابن الزبير؟ قلت: نعم، قال: ما أُحِبّ أن لي ما على ظهر الأرض كله وأني سرت إليه، وما على ظهر الأرض اليوم أحد خير منه. قال: فإذا هو عبد الملك بن مروان. فابتلي به حتى قتله في المسجد الحرام.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى نقطةٍ، وهي أن

عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، لم يكن أيام يزيد بن معاوية قد أعلن نفسه خليفةً إذ لا يصحّ ذلك ما دام يوجد خليفة قائم بالأمر، مبايع من قبل المسلمين. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)[1]، بل كان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، معتزلاً بمكة، لا يريد أن يُعطي البيعة، ويريدون أن يأخذوها منه بالقوة. ومبايعته ليزيد وعدمها لا يُقدّم ولا يُؤخّر بالنسبة إلى شرعية الخلافة القائمة. وهذا ما وقع فيه الناس من خطأٍ إذ عدّوا ابن الزبير، رضي الله عنه، قد أعلن نفسه خليفةً ويوجد خليفة مُبايَع، لذا أطلقوا على اعتزال ابن الزبير بمكة فتنةً، وعدّوه خارجاً على الجماعة. والواقع أنه لم يُبايع ابن الزبير بالخلافة، ولم يُعلن عن خلافته إلا بعد وفاة يزيد بن معاوية بل وتنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة وترك الأمر شورى للمسلمين. إذن فعندما بُويع ابن الزبير كانت الخلافة شاغرةً، ولم يكن هناك خليفة قائماً بالأمر. وبويع ابن الزبير من الأمصار الإسلامية كافةً فخلافته شرعية، ومن يدّعي الخلافة فهو خارج على

---

(١) رواه مسلم.

الجماعة، وهذا ما كان من مروان بن الحكم، وابنه عبد الملك من بعده حتى مقتل ابن الزبير، وقيام عبد الملك بالخلافة بالغلبة.

كان عبد الملك معروفاً بصباه بحسن أدبه، وطيب سمعته، ومخالطته للأطياب، وتركه اللئام. كان معاوية بن أبي سفيان قد جلس ذات يومٍ ومعه عمرو بن العاص فمرّ بهما عبد الملك بن مروان، فقال مُعاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصالٍ أربعٍ، وترك خصالاً ثلاثاً، أخذ بحسن الحديث إذا حدّث، وحسن الاستماع إذا حُدّث، وحسن البِشْر إذا لُقي، وخفّة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يُعتذر منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته[1].

عن نافع، قال: لقد رأيت عبد الملك بن مروان وما بالمدينة شَاب أشدّ تشميراً، ولا أطلب للعلم منه، وأحسبه قال: ولا أشدّ اجتهاداً[2].

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) طبقات ابن سعد.

وقال أبو الزناد: فقهاء المدينة: سعيد بن المسيّب، وعبد الملك، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب.

قال ابن عمر: إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه.

وقيل: إن أبا هريرة نظر إلى عبد الملك وهو غلام، فقال: هذا يملك العرب.

وكان قبل الخلافة عابداً ناسكاً بالمدينة.

سمع عثمان، وأبا هريرة، وأبا سعيد، وأم سلمة، وابن عمر، وبريرة.

حدّث عنه: عروة، وخالد بن معدان، ورجاء بن حَيْوة، وإسماعيل بن عبيد الله، والزهريّ، وربيعة بن يزيد، ويونس بن ميسرة.

وكان أبيض طويلاً، مقرون الحاجبين، أعين، مُشْرِف الأنف، رقيق الوجه، ليس بالبادن، أبيض الرأس واللحية[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء.

الفصل الثاني

عبد الملك
في خلافة عبد الله بن الزبير

بويع مروان بن الحكم بالجابية يوم الاثنين في النصف من ذي القعدة سنة أربعٍ وستين بيعةً محليةً لم تزد على أهل الأردن بإمرة حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي[1] وبعض الشخصيات أمثال عبيد الله بن زياد[2]،

---

(١) حسان بن مالك بن بحدل بن أُنيف، أبو سليمان الكلبي: من أمراء معاوية يوم صفين، وهو الذي شدّ من مروان بن الحكم وبايعه.
سلّموا بالخلافة على حسان أربعين ليلة، ثم سلم الأمر لمروان.
وهو الذي يفتخر ويقول:
فإن لا يكن منا الخليفة نفسه ... فما نالها إلا ونحن شهود

(٢) عبيد الله بن زياد بن أبيه: أمير العراق، أبو حفص، ولي البصرة سنة خمسٍ وخمسين وله ثنتان وعشرون سنة، وولي خراسان، فكان أولَ عربي قطع نهر جيحون.
كان جميل الصورة، قبيح السريرة.
كانت أمه مرجانة من بنات ملوك الفرس.

والحصين بن نمير[1] و. . . . فهذه بيعة غير شرعيةٍ ما دامت محليةً، وما دام يوجد خليفة للمسلمين قائم بالأمر، هو عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما. وعلى هذا يعدّ مروان خارجاً على الجماعة ويُقاتل، وهو يعلم هذا، بل إن مروان نفسه كان مرتحل لمبايعة عبد الله بن الزبير ولولا التقاؤه بعبيد الله بن زياد، وثنيه عن المضي، وإطماعه بالخلافة لبقي في سيره، ولأعطى البيعة ولاستقام الأمر.

واستطاع مروان أن يُسيطر على الشام كلها، ويتبعها بمصر، ومع هذا بقي خارجاً على الجماعة يجب قتاله، لأن بقية الأمصار على بيعتها لابن الزبير، وابن الزبير على قيد الحياة، ولم يتنازل عن الخلافة، وقائم بشؤونها.

وحاول مروان أن يُوسّع منطقة نفوذه غير أنه لم

= قتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة سبع وستين، قتله إبراهيم بن الأشتر.

(١) الحصين بن نمير بن نائل، أبو عبد الرحمن الكندي ثم السكوني: قائد من القساة الأشداء المقدمين في العصر الأموي، من أهل حمص، حاصر ابن الزبير في مكة، ورمى الكعبة. وقتل سنة سبع وستين مع عبيد الله بن زياد في حربه مع إبراهيم بن الأشتر.

يستطع، ووقع صراع على عدّة جهاتٍ، وحدثت اشتباكات دون نتيجةٍ. وبقي خارجاً على الجماعة.

وعهد مروان من بعده على مناطق نفوذه مصر والشام لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز.

وتُوفّي مروان بن الحكم في الثالث من رمضان سنة خمسٍ وستين، وخلفه ولي عهده ابنه عبد الملك، خلفه على مناطق نفوذه مصر والشام، وخلفه في خروجه على الجماعة. ومع خروجه على الجماعة فإنا نعدّه أميراً على الشام، ولكن يجب قتاله.

تابع عبد الملك سياسة أبيه في محاولة توسعة مناطق نفوذه بل إن جيوش مروان كانت في العراق تعمل على التوسّع، وعليها عبيد الله بن زياد. وكانت أوضاع العراق مضطربةً ففيها أمراء ابن الزبير، وفيها المختار بن أبي عبيد الثقفي[١]، وفيها التوّابون الذين يُريدون أن

---

(١) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي: الكذّاب. أسلم أبوه في حياة النبي، ﷺ، وليس له صحبة، وغزا العراق، وقتل في معركة الجسر في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

كان المختار من ذوي الرأي والشجاعة والدهاء. تظاهر بالتقرّب إلى عبد الله بن الزبير، وتودّد إلى محمد بن الحنفية، ويثني على هذا، ويعيب على ذاك. =

يتوبوا عما فعلوه من خذلان الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فقاموا يُطالبون بثارات الحسين، وقد اشتبكوا بجيوش الشام أيام مروان.

بعث الخليفة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، أخاه مصعباً أميراً على المدينة، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة(١) أميراً على البصرة، وعبد الله بن مطيع(٢) أميراً على الكوفة. وكان المختار بن أبي عبيد قد خرج من السجن في الكوفة.

التفّت جماعة المختار حوله، وانضمّ إليهم التوّابون

= قتل في معركة بينه وبين مصعب بن الزبير. كانت زوجته عمرة بنت النعمان بن بشير. وكانت أخته صفية عند عبد الله بن عمر.

(١) الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المكي: لُقِّب بالقُبَاع باسم مكيال وضعه لهم.
حدّث عن عمر، ومعاوية، وعائشة، وأم سلمة. كان أسود خطيباً بليغاً، صاحب دين.

(٢) عبد الله بن مطيع بن الأسود الكعبي القرشي العدوي: أحد رجال قريش في الشجاعة، كان على قريشٍ يوم الحرة، وتوارى بعدها في المدينة، ثم سكن مكة، واستعمله ابن الزبير على الكوفة، وأخرجه منها المختار بن أبي عبيد، فرجع إلى مكة، وقتل مع ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين يوم حصار الحجاج للبيت الحرام.

الذين رجعوا مهزومين، وتمكّنت هذه المجموعة من اجتذاب إبراهيم بن الأشتر النخعي[1] إليها، وخرجت على الوالي عبد الله بن مطيعٍ فجهّز لهم جيشاً بإمرة شبث بن ربعي[2] فانتصرت جماعة المختار عليه، واستطاع المختار من السيطرة على الكوفة، وخرج عبد الله بن مطيعٍ إلى البصرة، وأخذ المختار يتتبّع قتلة الحسين.

أرسل المختار جيشاً لملاقاة جيش عبيد الله بن زياد الذي بلغهم أنه سار إلى الجزيرة بعد الانتهاء من جيش التوابين. اتجه جيش المختار نحو الموصل لقتال القيسية أنصار ابن الزبير، والذين قاتلوا في مرج راهط مع الضحاك بن قيس[3]، وانتصر عليهم.

---

(١) إبراهيم بن الأشتر مالك بن الحارث النخعي: أحد الأشراف كأبيه، قتل مع مصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين.

(٢) شبث بن ربعي التميمي اليربوعي: أحد الأشراف والفرسان، كان ممن خرج على عليّ، وأنكر عليه التحكيم، ثم تاب وأناب. كان سيد تميم هو والأحنف. حدّث عن عليّ وحذيفة.

(٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي: أبو عبد الرحمن، أبو سعيد، أبو أمية، أبو أُنيس. يعد من صغار الصحابة. حدّث عنه معاوية، وسعيد بن جبير، والشعبي.
شهد فتح دمشق وسكنها، وكان على عسكر دمشق يوم صفين.
ولي الكوفة لمعاوية بعد موت زياد بن أبيه سنة ثلاث=

رجع جيش المختار إلى الكوفة إذ بلغه أن عبيد الله بن زياد قد جاء بجيشٍ من الشام، قوامه ثمانون ألفاً، ويتجه إلى الكوفة مباشرةً.

جهّز المختار جيشاً بإمرة إبراهيم بن الأشتر النخعي لملاقاة عبيد الله بن زياد، وما أن تحرّك ابن الأشتر بالجيش، وغادر الكوفة قليلاً حتى ثار أهل الكوفة على المختار، وعلموا أنه كذاب، فأرسل المختار في طلب ابن الأشتر بمن معه، واقتتل الناس، وانتصرت جماعة المختار، وفرّ وجهاء الكوفة إلى البصرة. وأخذ المختار يقتل قتلة الحسين بن علي، رضي الله عنهما، في كربلاء فقتل شمر ذي الجوشن[1]، وعمر بن سعد بن أبي وقاص[2]، وأرسل رسلاً إلى البصرة تدعو له، فمُنعوا.

= وخمسين، ثم عزله عنها وولاّه دمشق. وهو الذي صلّى على معاوية، وقام بخلافته حتى قدم يزيد بن معاوية. دعا لابن الزبير، كما دعا لنفسه. قتل في مرج راهط في النصف من ذي الحجة سنة أربع وستين.

(١) شَمِر بن ذي الجوشن واسمه (شرحبيل) بن قرط الضبابي الكلابي، من قتلة الحسين بن علي، رضي الله عنهما، شهد صفين مع عليّ، ثم أقام بالكوفة. ثم قُتل سنة ست وستين على يد جماعة المختار.

(٢) عمر بن سعد بن أبي وقاص: قائد السرية التي قتلت الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وقتله المختار مع ولديه صبراً.

عاد المختار يُصانع ابن الزبير ليتّقي جيش الشام قبل ذلك، وأرسل كتاباً إلى عبد الله بن الزبير يُعلن فيه الطاعة، فأرسل ابن الزبير والياً على الكوفة من قبله ليرى صدق المختار من كذبه، اتّجه والي الكوفة الجديد من قبل ابن الزبير، وهو عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي نحو الكوفة فلقيه على الطريق زائدة بن قدامة من جهة المختار فاعترض سبيله فسار عمر بن عبد الرحمن إلى البصرة، واجتمع مع عبد الله بن مطيعٍ والي الكوفة الأسبق من قبل ابن الزبير.

أرسل عبد الملك بن مروان جيشاً إلى المدينة بإمرة ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم ليأخذها من ابن الزبير، وقد وصل هذا الجيش إلى وادي القرى، فكتب المختار لابن الزبير إن كنت تريد مدداً أنجدتك، فأجابه: إن كنت على طاعتنا فلا بأس من إرسال المدد. فأرسل المختار مدداً قوامه ثلاثة آلاف بإمرة شرحبيل بن ورس الهمداني، وقال له: ادخل المدينة، فإذا دخلتها فاكتب إليّ حتى يأتيك أمري. وكان المختار ينوي خديعة ابن الزبير وأخذ المدينة منه، ثم يركب هو إلى مكة بعد ذلك. وكان ابن الزبير يعرف أسلوب المختار وخداعه لذلك أرسل له قوةً بإمرة العباس بن سهل بن سعد

الساعدي[1] فالتقى بقائد المختار فعرف منه مهمته فقضى على أكثر جنده في ليلٍ.

اقترب جيش عبد الملك المتجه إلى العراق بإمرة عبيد الله بن زياد من شمالي العراق فأرسل له المختار جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر فالتقى به قريباً من الموصل في مطلع سنة سبعٍ وستين، فجرت معركة عظيمة بين الطرفين قُتل فيها من جند الشام عبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وامتلك إبراهيم بن الأشتر المنطقة، فعيّن الولاة على: نصيبين، والموصل، ودارا (دير الزور)، وسنجار، وأرسل رأس عبيد الله بن زياد إلى المختار.

أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً والياً على البصرة ليكون كفئاً للمختار الذي يتولّى أمر الكوفة. وكان إبراهيم بن الأشتر قد استولى على أكثر الجزيرة

---

(١) العباس بن سهل بن سعد الساعدي الأنصاري الخزرجي: ولد سنة خمسٍ وعشرين في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه. آذاه الحجاج لأنه من أصحاب عبد الله بن الزبير. وجاء أبوه سهل بن سعد يشفع فيه، وقال: ألا تحفظ فينا وصية رسول الله، ﷺ: (اقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم) فأطلقه. توفي سنة عشرين ومائة بالمدينة.

الفراتية بعد أن قتل عبيد الله بن زياد، واستهان بالمختار، فطمع مصعب بن الزبير بإبراهيم بن الأشتر فأرسل محمد بن الأشعث بن قيس[1] أميراً على خراسان، واستقدم نائبه عليها وهو المهلب بن أبي صفرة.

سار مصعب بن الزبير من البصرة نحو الكوفة، ومعه الأحنف بن قيس[2] والمهلب بن أبي

---

(١) محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أبو القاسم: قائد من أصحاب مصعب بن الزبير، شهد معه أكثر وقائعه، وكان هو وعبيد الله بن علي بن أبي طالب على مقدمة جيش مصعب في حربه مع المختار الثقفي، وقُتل مع عبيد الله قبل مقتل المختار بأربعة أيام، وله رواية للحديث عن عائشة، رضي الله عنها.

(٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين، أبو بحر التميمي، أحد من يضرب به المثل في الحلم والسؤدد. اسمه الضحاك، وقيل: صخر، وشُهر بالأحنف لحنف رجليه، وهو العوج والميل. كان سيد تميم. أسلم في حياة النبي، ﷺ، ووفد على عمر، رضي الله عنه. وكان من قادة جيش علي، رضي الله عنه، يوم صفين.

حدّث عن عمر، وعثمان، وعليّ، وأبي ذرّ، والعباس، وابن مسعود.

وهو من بني سعد من تميم، وأمه باهلية. كان أعور، أحنف، قصيراً، لا شعر على عارضيه. له دور في الفتح في خراسان، وخرج عبد الله بن عامر من خراسان وخلّف عليها الأحنف، فاجتمع له أهلها فهزمهم. =

صفرة[1]، فخرج إليه المختار، والتقى الطرفان، وهُزم جيش المختار، وتراجع إلى الكوفة، وقد قُتل المختار في تلك المعركة التي جرت في ١٤ رمضان سنة سبع وستين. فكان المختار كذّاباً يُظهر أنه يعمل إلى آل البيت فيدعو إلى محمد بن الحنفية، ويُبطن الدعوة لنفسه. ويدعو أحياناً لعبد الله بن الزبير على رؤوس الأشهاد، ويُظهر الكهانة أحياناً.

دعا مصعب بن الزبير إليه إبراهيم بن الأشتر فجاءه، فأكرمه. وأرسل المهلب بن أبي صفرة إلى الجزيرة الفراتية أميراً. واستقرّ هو بالكوفة، وولّي على البصرة حين خرج منها عبيد الله بن عبد الله بن معمر.

= كان صديق مصعب بن الزبير، وفد إلى الكوفة، ومات عنده في إمرته العراق سنة إحدى وسبعين.

(١) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد: ولد في دبا سنة سبع، ونشأ بالبصرة، قدم المدينة مع أبيه أيام الخليفة عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه. ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، فقئت عينه بسمرقند، وانتدب لقتال الخوارج، فحاربهم تسعة عشر عاماً، وقتل منهم الكثير، وأخيراً انتصر عليهم. ولاه عبد الملك بن مروان إمرة خراسان فقدمها سنة تسع وسبعين، ومات فيها سنة اثنتين وثمانين.

قتل عمرو بن سعيد:

ركب عبد الملك في مطلع سنة تسعٍ وستين في جيشٍ، وقصد قرقيسيا ليُقاتل زفر بن الحارث الكلابي[1] الذي كان سيد قيسٍ، وقد تحصّن فيها بعد أن فرّ من معركة مرج راهط، وكان قد أعان التوابين في عين الوردة بزعامة سليمان بن صُرَد[2] حين قاتلهم جيش مروان بن الحكم. وكان عبد الملك ينوي أن يتابع سيره إلى مصعب بن الزبير بعد فراغه من زفر. ذلك أن مصعباً كان قد تهيّأ للخروج إلى عبد الملك، وسار حتى أتى

---

(١) زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ الكلابي، أبو الهذيل، أمير، من التابعين، كان من سادات قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميراً على جند قنسرين، وشهد معركة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري، فلما قتل الضحاك هرب زفر إلى قرقيسيا عند مصب نهر الخابور على الفرات، وتحصّن بها، وبقي فيها حتى مات سنة خمسٍ وسبعين.

(٢) سليمان بن صُرّد بن الجون بن أبي الجون عبد العزى بن منقذ، السلولي، الخزاعي، أبو مطرف: ولد سنة ثمان وعشرين، فهو تابعي، كان من أصحاب علي، رضي الله عنه، يوم الجمل وصفّين. وسكن الكوفة، وكان ممن كاتب الحسين وتخلّف عنه، وخرج بعد ذلك مطالباً بدمه، وترأس (التوابين)، قتل في حربه مع عبيد الله بن زياد في عين الوردة سنة خمس وستين. قتله يزيد بن الحصين.

(باجُميرة) قرية على شط الفرات دون الأنبار بثلاثة فراسخ، فنزلها، وبلغ عبد الملك فجمع جنوده، ثم سار فيهم يؤمّ العراق لقتال مصعب ولكن أحبّ أن يفرغ قبلها من زفر بن الحارث. وقبل أن يخرج عبد الملك كان يجلس مع روح بن زنباع الجذامي[1]، وخالد بن يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد بن العاص، فالتفت عبد الملك إلى روح بن زنباع وقال له: والله إن أمر هذه الدنيا لعجباً، لقد رأيتني ومصعب بن الزبير أفقده الليلة الواحدة من الموضع الذي نجتمع فيه فكأني والهٌ، ويفقدني فيفعل مثل ذلك. ولقد كنت باللطَف فما أراه يجوز لي أكله حتى أبعث به إلى مصعب أو ببعضه، ثم صرنا إلى السيف، ولكن هذا الملك عقيم ليس أحد يريده من ولد أو والد إلا كان السيف. وإنما كان يقول عبد الملك هذا القول ليسمعه خالد بن يزيد، وعمرو بن سعيد حيث كان يريدهما به، وهو يومئذٍ يخافهما، وقد عرف أن عمرو بن سعيد أطوع الناس عند أهل الشام، وخالد بن يزيد بن معاوية قد كان مروان أطمعه في العقد له بعده،

---

(١) روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة: أمير فلسطين وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها، كان مقدماً عند عبد الملك.

فعقد مروان لعبد الملك، ولعبد العزيز بعد عبد الملك، فأيس خالد، وهو مع عبد الملك على الطمع والخوف.

لما سار عبد الملك يؤمّ العراق إلى مصعب لقتاله فكان دون بُطْنان حبيب بليلةٍ، جلس خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد فتذاكرا أمر عبد الملك ومسيرهما معه على خديعةٍ منه لهما، ومواعيد باطلةٍ. قال عمرو: فإني راجع. فشجّعه خالد على ذلك، فرجع عمرو إلى دمشق فدخلها والسور يومئذٍ عليها وثيق، فدعا أهل الشام فأسرعوا إليه. وفقده عبد الملك وقال: أين أبو أمية؟ فقيل له: رجع، فرجع عبد الملك بالناس إلى دمشق، فنزل على مدينة دمشق فأقام عليها ست عشرة ليلةً حتى فتحها عمرو له وبايعه، فصفح عنه عبد الملك، ثم أجمع على قتله، فأرسل إليه يوماً يدعوه، فوقع في نفسه أنها رسالة شرٍّ، فركب إليه فيمن معه، ولبس درعاً مكفّراً بها، ودخل على عبد الملك فتحدّث ساعةً، وقد كان عهد إلى يحيى بن الحكم إذا خرج إلى الصلاة أن يضرب عنقه، ثم أقبل عليه، فقال له: يا أبا أمية ما هذه الغوائل والزبى[1] التي تُحفر لنا؟ ثم ذكّره ما كان منه.

---

(١) الزبى: الحفر في الموضع العالي يُصاد فيها الأسد. ومفردها الزُّبْيَة.

وخرج إلى الصلاة ورجع ولم يقدم عليه يحيى فشتمه عبد الملك، ثم أقدم هو ومن معه على عمرو بن سعيد فقتله.

أقام عبد الملك تلك السنة فلم يغزو مصعباً، وانصرف مصعب إلى الكوفة.

وفي سنة سبعين شعر الروم بضعف المسلمين بسبب الخلاف الواقع بينهم، فهمّ الروم بالهجوم على الشام فصالحهم عبد الملك على أن يدفع لهم كل جمعةٍ ألف دينار خوفاً منهم على الشام.

مقتل مصعب بن الزبير:

صفا الجو لعبد الملك بالشام تماماً بعد الانتهاء من عمرو بن سعيد، وكان عبد الملك قبل ذلك يهمّ كل عامٍ أن يخرج إلى العراق، ويريد مصعب أن يخرج إلى الشامَ فيحول الشتاء دون لقاء الطرفين حتى كانت سنة إحدى وسبعين فتهيّأ عبد الملك لذلك وخرج بجندٍ كثيرٍ من أهل الشام لقتال مصعب، وكان على ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية، وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان. ولا شك فإن خروج الأمير (الخليفة) على رأس الجيش يعطي الجند شجاعةً وحماسةً، ويضعف من معنويات الخصم.

التقى الطرفان بـ (مَسْكِنْ). فراسل عبد الملك أمراء مصعب، ومنّاهم بالولايات، ووعدهم بالأعطيات، وقد جاء مما جاء من كتبه إلى إبراهيم بن الأشتر، وفيه تمنية بإمرة العراق، فجاء إبراهيم بالكتاب إلى مصعب، وقال له: أيها الأمير، إنه لم يبق أحد من أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضربت أعناقهم (ويعني بكلامه أنه ما دام قد جاء كتاب من عبد الملك إلى ابن الأشتر، فلا يمكن إلا أن يكون قد جاء إلى الجميع، ولكن لم يطلعوك على ذلك، وهذا دليل عدم طاعتهم لك، والأولى قتلهم وإلا خذلوك أثناء المعركة). فأجاب مصعب: إني لو فعلت ذلك لم تنصحنا عشائرهم بعدهم (أي اقتنع مصعب بكلام إبراهيم بن الأشتر)، فقال ابن الأشتر: فابعثهم إلى أبيض كسرى فاسجنهم فيه، فإن كانت لك النصرة ضربت أعناقهم، وإن كانت عليك خرجوا بعد ذلك، فقال له مصعب: يا أبا النعمان إني لفي شغلٍ عن هذا، ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر - يعني الأحنف بن قيس - إن كان ليحذّرني غدر أهل العراق، وكأنه ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

وتقدّم إبراهيم بن الأشتر، وكان على مقدمة مصعب فأزال مقدمة عبد الملك عن مواضعها، فأنجدت

ميمنة عبد الملك المقدمة فقُتل ابن الأشتر. وخذلت ربيعة وغيرها مصعباً، وتخاذل قادة مصعب، وصعب الموقف، وأعطى عبد الملك الأمان لمصعب فرفضه، وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً. وقال: إن المرء ميت على كل حال، فوالله لأن يموت كريماً أحسن من أن يضرع إلى من قد وتره.

ونادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخي لا تقتل نفسك لك الأمان، فقال له مصعب: قد أمّنك عمك فامض إليه. قال: لا تتحدّث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني فاركب خيل السبق فالحق بعمك فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول هاهنا، فقال له: والله إني لا أُخبر عنك أحداً أبداً، ولا أُخبر نساء قريشٍ مصرعك، ولا أُقتل إلا معك، ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة، فقال: والله لا تتحدّث قريش بأني فررت من القتال. لا تتحدّث قريش أني فررت لخذلان ربيعة، وما السيف بعارٍ، وما الفرار بعادة لي ولا خلق.

تقدّم عيسى بن مصعب فقاتل حتى قُتل بين يدي أبيه، وأُثخن مصعب بالجراح، وهو يكرّ على الجموع

حتى قُتل، وكان قتله يوم نصف جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين. وله أربعون سنةً.

وكانت المعركة بـ (دير الجاثليق)[1] قرب (أوانا)[2] في ناحية (مَسْكِن)[3].

ومال الناس إلى عبد الملك، وقُدّم له رأس مصعب.

نزل عبد الملك النخيلة فبايعه أهل العراق.

إن الذي طَعَنَ مصعب هو زائدة بن قدامة، وقال: يا لثارات المختار، فصرعه، ونزل إليه عبيد الله بن ظبيان[4] فاحتزّ رأسه، وقال: إنه قتل أخي النائي بن

---

(١) دير الجاثليق: دير قديم، رحب الفناء من طسّوج مَسْكِن قرب بغداد في غرب دجلة، وهو في رأس الحدّ بين السواد، وأرض تكريت. وقيل: عند باب الحديد قرب دير الثعالب في وسط العمارة بغربي بغداد.

(٢) أوانا: بليدة كثيرة البساتين والشجر، مكان نزهةٍ، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، وكثيراً ما يذكرها الشعراء.

(٣) مَسْكِن: موضع قريب من أوانا على نهر دُجيل عند دير الجاثليق.

(٤) عبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري، أبو مطر: فاتك من الشجعان، كان مقرّباً من عبد الملك. ثم خرج على الحجاج مع ابن الجارود (عبد الله بن بشر) فلما قتل ابن الجارود=

زياد، فأُتي به إلى عبد الملك فأعطاه ألف دينارٍ، فأبى أن يأخذها، وقال: إني لم أقتله على طاعتك، إنما قتلته على وِترٍ صنعه بي، ولا آخذ في حمل رأسٍ مالاً. فتركه عند عبد الملك.

فلما قُتل مصعب أمر به عبد الملك وبابنه عيسى فدُفنا.

وبهذا توسّع نفوذ عبد الملك بن مروان فشمل العراق وما يتبعه من ناحية المشرق، ومصر وما يتبعه من جهة المغرب، إضافةً إلى الشام، ولم يبق للخليفة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، إلا جزيرة العرب.

ولما انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب قام في الناس فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يُؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويُعزّ من يشاء، ويُذلّ من يشاء. ألا وإنه لم يُذْلِلِ اللَّهُ من كان الحق معه، وإن كان فرداً، ولم يُعززْ من كان وليه الشيطان وحزبه وإن معه الأنام طُرّاً. ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر حزننا وأفرحنا أتانا قتل مصعب رحمة الله

= انصرف إلى عُمان، ولجأ إلى ابن الجلندي الأزدي، فخافه، فقيل دسّ له السم في بطيخةٍ فمات سنة خمس وسبعين.

عليه، فأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة، وأما الذي حزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي من بعدها ذو الرأي إلى جميل الصبر وكريم العزاء، ولئن أُصبت بمصعبٍ لقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبةٍ، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله، وعون من أعواني. ألا إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يُقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبي العاص والله ما قُتل منهم رجل في زحفٍ في الجاهلية ولا الإسلام، وما نموت إلا قعصاً[١] بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف. ألا إن الدنيا عارية من المَلِكِ الأعلى الذي لا يزول سلطانه، ولا يَبيد مُلكه، فإن تُقْبِل لآخذها أخذ الأشر البَطر، وإن تُدْبِر لا أبك عليها بكاء الحَرقِ المَهِين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

مقتل الخليفة عبد الله بن الزبير:

بعد مقتل مصعب بن الزبير، والانتهاء من أمر العراق ندب عبد الملك بن مروان الناس إلى قتال عبد الله بن الزبير بمكة، فلم يُجبه أحد إلى ذلك، فقام

---

(١) القعص: الموت السريع.

الحجاج بن يوسف الثقفي، وقال: أنا له يا أمير المؤمنين، فابعث بي إليه فإني قاتله.

وذُكر أن الحجاج قال لعبد الملك: يا أمير المؤمنين، إني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته، فابعثني إليه، وولّني قتاله. فبعثه في جيشٍ كثيفٍ من أهل الشام، فسار حتى قدم مكة، وقد كتب إليهم عبد الملك بالأمان إن دخلوا في طاعته.

خرج الحجاج في جند الشام في جمادى سنة اثنتين وسبعين، فلم يعرض للمدينة، وسلك طريق العراق، فنزل الطائف، فكان يبعث البعوث إلى عرفة في الخيل، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتتلون هنالك في الحِلّ، فكل ذلك تُهزم خيل ابن الزبير، وترجع خيل الحجاج بالظفر. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليه فإن شوكته قد كلّت، وتفرّق عنه عامة أصحابه، ويسأله أن يمدّه بالرجال.

جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج، وكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو[1] يأمره أن يلحق بمن معه

---

(١) طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان، أرسله عبد الملك في ستة آلاف إلى المدينة فدخلها فولاه عليها سنة ٧٢، ثم عزله بالحجاج سنة ٧٣.

من الجند بالحجاج، فسار في خمسة آلافٍ من أصحابه حتى لحق بالحجاج.

كان قدوم الحجاج الطائف في شعبان سنة اثنتين وسبعين. فلما دخل ذو القعدة رحل الحجاج من الطائف حتى نزل بئر ميمون وحصر ابن الزبير.

وحجّ الحجاج بالناس في هذه السنة، وابن الزبير محصور، وكان قدوم طارق مكة لهلال ذي الحجة، ولم يطف بالبيت، ولم يصل إليه، وهو محرم، وكان يلبس السلاح، ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قُتل عبد الله بن الزبير. ونحر ابن الزبير بُدْناً بمكة يوم النحر، ولم يحجّ ذلك العام ولا أصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة.

قال محمد بن عمر: حدّثني سعيد بن مسلم بن بابك عن أبيه، قال: حججت في سنة اثنتين وسبعين فقدمنا مكة، فدخلناها من أعلاها، فنجد أصحاب الحجاج وطارق فيما بين الحجون إلى بئر ميمون، فطُفنا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم حجّ بالناس الحجاج، فرأيته واقفاً بالهضبات من عرفة على فرسٍ، وعليه الدرع والمغفر، ثم صدر فرأيته عدل إلى بئر ميمون، ولم يطف بالبيت، وأصحابه متسلّحون، ورأيت الطعام عندهم

كثيراً، ورأيت العير تأتي من الشام تحمل الطعام، الكعك والسويق والدقيق، فرأيت أصحابه مخاصيب، ولقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم، فكفانا إلى أن بلغنا الجحفة وإنا لثلاثة نفر[1].

كان حصار عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في مكة من قبل الحجاج ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وقد نصب الحجاج المنجنيق، وأخذ يقذف البيت وابن الزبير بالحرم.

عن يوسف بن ماهك، قال: رأيت المنجنيق يُرمى به، فرعدت السماء وبرقت، وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة، فاشتمل عليها، فأعظم ذلك أهل الشام، فأمسكوا بأيديهم، فرفع الحجاج بِرْكة قَبائه فغرزها في مِنطقته، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه، ثم قال: ارموا، ورمى معهم. قال: ثم أصبحوا، فجاءت صاعقة تتبعها أخرى فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج: يا أهل الشام، لا تُنكروا هذا فإني ابن تِهامة، هذه صواعق تهامة، هذا الفتح قد حضر فأبشروا، إن القوم يُصيبهم مثل ما أصابكم، فصعقت من

(١) تاريخ الطبري.

الغد. فأُصيب من أصحاب ابن الزبير عدة، فقال الحجاج: ألا ترون يُصابون وأنتم على الطاعة، وهم على خلاف الطاعة. فلم تزل الحرب بين ابن الزبير والحجاج حتى قبيل مقتله، وقد تفرّق عنه أصحابه، وخرج عامة أهل مكة إلى الحجاج في الأمان.

وعن المنذر بن جهم الأسدي، قال: رأيت ابن الزبير يوم قُتل وقد تفرّق عنه أصحابه، وخذله من معه خذلاناً شديداً، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف.

وذُكر أنه ممن كان فارقه وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أماناً، فدخل على أمه أسماء حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم، فقال: يا أمه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعةٍ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بنيّ أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حقٍّ وإليه تدعو فامض له، فقد قُتل عليه أصحابك، ولا تُمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتل معك، وإن قُلتَ:

كنت على حقٍّ فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن. فدنا ابن الزبير فقبّل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحلّ حُرَمُه، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرةً مع بصيرتي. فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك، وسلّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكرٍ، ولا عملاً بفاحشةٍ، ولم يَجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمانٍ، ولم يتعمّد ظلم مسلمٍ، ولا معاهدٍ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي. اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني. فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدّمتني، وإن تقدّمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قُتِل على باطلٍ فقد قُتلت على حق. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبِرّه

بأبيه وبي. اللهم قد سلّمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.

قال مصعب بن ثابت: فما مكثت بعده إلا عشراً، ويقال خمسة أيام.

قال محمد بن عمر: حدثني موسى بن يعقوب بن عبد الله، عن عمه قال: دخل ابن الزبير على أمه وعليه الدرع والمغفر، فوقف فسلّم، ثم دنا فتناول يدها فقبّلها. فقالت: هذا وداع فلا تبعد، قال ابن الزبير: جئت مودّعاً، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمرّ بي، واعلمي يا أمه أني إن قتلت فإنماَ أنا لحم لا يضرّني ما صُنع بي، قالت: صدقت يا بنيّ أتمم على بصيرتك، ولا تُمكّن ابن أبي عقيل منك، وادنُ مني أودّعك، فدنا منها فقبّلها وعانقها، وقالت حيث مسّت الدرع: ما هذا صنيع من يريد ما تريد! قال: ما لبست هذا الدرع إلا لأشدّ منك، قالت العجوز: فإنه لا يشدّ مني، فنزعها ثم أدرج كُمّيْه، وشدّ أسفل قميصه، وجُبّة خزٍّ تحت القميص فأدخل أسفلها في المِنطقة، وأُمّه تقول: البس ثيابك مُشمّرة. ثم انصرف ابن الزبير وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبر

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبّر والله إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب.

حدّثني الحارث، قال: حدّثني ابن سعد، قال: أخبرني محمد بن عمر، قال: أخبرنا ثور بن يزيد، عن شيخٍ من أهل حمص شهد وقعة ابن الزبير مع أهل الشامَ، قال: رأيته يوم الثلاثاء وإنا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من بابٍ لنا ندخله، لا يدخله غيرنا، فيخرج إلينا وحده في أثرنا، ونحن منهزمون منه، فما أنسى أرجوزةً له:

إنـــي إذا أعــرف يــومــي أصــبــر
وإنــمــا يــعــرف يــومــيــه الــحــر
إذ بــعــضــهــم يــعــرف ثــم يُــنــكــر

فأقول: أنت والله الحر الشريف، فلقد رأيته يقف في الأبطح ما يدنو منه أحد حتى ظننّا أنه لا يُقتل.

وعن نافع مولى بني أسد، قال: رأيت الأبواب قد شحنت من أهل الشام يوم الثلاثاء، وأسلم أصحاب ابن الزبير المحارس، وكثرهم القوم فأقاموا على كل بابٍ رجالاً وقائداً وأهل بلدٍ، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل

الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمحٍ، ولأهل قنّسرين باب بني سهم، وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة، فمرةً يحمل ابن الزبير في هذه الناحية، ومرّةً في هذه الناحية، فلكأنه أسدٌ في أجمةٍ ما يقدم عليه الرجال، فيعدو في أثر القوم، وهم على الباب حتى يخرجهم، وهو يرتجز:

إنـــي إذا أعــرف يــومــي أصــبــر
وإنــمــا يــعــرف يــومــيــه الــحــر

ثم يصيح: يا أبا صفوان، ويل أمه فتحاً لو كان له رجال! لو كان قِرني واحداً كفيته قال ابن صفوان: إي والله وألف.

وعن نافع مولى بني أسد أيضاً، قال: لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين، وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب بات ابن الزبير يُصلّي عامة الليل، ثم احتبى بحمائل سيفه فأغفى، ثم انتبه بالفجر فقال: أذّن يا سعد، فأذّن عند المقام، وتوضّأ ابن الزبير، وركع ركعتي الفجر، ثم تقدّم، وأقام المؤذّن، فصلّى بأصحابه، فقرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ حرفاً حرفاً، ثم سلّم، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

اكشفوا وجوهكم حتى أنظر، وعليهم المغافر والعمائم، فكشفوا وجوههم، فقال: يا آل الزبير، لو طِبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطُلِمنا في الله لم تُصبنا زبّاء بتّة. أما بعد يا آل الزبير فلا يَرُعْكم وقع السيوف، فإني لم أحضر موطناً قطّ إلا ارتُثثت فيه من القتل، وما أجد من أدواء جراحها أشدّ مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرأً كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غُضّوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئٍ قِرنه، ولا يُلهينّكم السؤال عني، ولا تقولُنّ: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول.

أبي لابن سَلمى أنّه غير خالد
ملاقي المنايا أيّ صرفٍ تيمّما
فلست بمبتاع الحياة بسُبّةٍ
ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سُلّما[1]

احملوا على بركة الله... ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحَجون، فرُمي بآجرةٍ فأصابته بوجهه فأرعش

---

(١) الأبيات للحصين بن الحمام المريّ.

لها، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمي كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وتغاووا عليه.

قال: وصاحت مولاة لنا مجنونة: وأمير المؤمنيناه، قال: وقد رأته حيث هوى فأشارت لهم إليه، فقُتل وإن عليه ثياب خزٍّ. وجاء الخبر إلى الحجاج، فسجد وسار حتى وقف عليه وطارق بن عمرو، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا، فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين! قال: نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا ما كان لنا عذر، إنا محاصروه وهو في غير خندقٍ ولا حصنٍ ولا منعةٍ منذ سبعة أشهرٍ ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو، فبلغ كلامهما عبد الملك، فصوّب طارقاً[1].

استمرّ حصار الحجاج لابن الزبير ستة أشهرٍ وسبعة عشر يوماً من ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وحتى مقتل عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، يوم

---

(١) تاريخ الطبري.

الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين.

ودخل الحجاج مكة، فبايع من بها من قريشٍ لعبد الملك بن مروان.

ولما قُتل ابن الزبير ارتجّت مكة بكاءً عليه، فخطب الحجاج الناس فقال: أيها الناس، إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها، وألحد في الحرم فأذاقه الله من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة، وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمر الله، وأكل من الشجرة التي نُهي عنها أخرجه الله من الجنة. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. وقيل: إنه قال: يا أهل مكة إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا، ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله، وألحد في حرم الله، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة، وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيءٍ، فلما عصاه أخرجه من الجنة، وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وإن ابن الزبير غيّر كتاب الله.

فقال له عبد الله بن عمر: لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت، والله إن ابن الزبير لم يُغيّر كتاب الله، بل كان قوّاماً به صوّاماً، عاملاً بالحق[1].

ثم أمر الحجاج بجثّة ابن الزبير فصُلبت على ثنية (كدا) عند الحَجون، يقال: مُنَكَّسَةً، فما زالت مصلوبةً حتى مرّ عبد الله بن عمر فقال: رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صوّاماً قوّاماً، ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فَأُنْزِلَ عن الجذع، ودُفن هناك.

وروى الواقدي أن الحجّاج لما صلب ابن الزبير على ثنية الحَجون بعثت إليه أسماء تدعو عليه، وطلبت منه أن يُدفن فأبى عليها، حتى كتب إلى عبد الملك في ذلك، فكتب إليه أن يُدفن، فدُفن بالحجون، وذكروا أنه كان يشتمّ من عند قبره ريح المسك. وهناك روايات كثيرة في قتله، وصلبه، وحديث الحجاج مع أمه أسماء، حتى وقع تصحيف في بعضها، فذُكر أنه دفن في مقابر اليهود، وهذا تصحيف واضح حيث صُحّفت الحجون إلى اليهود إذ لم يسكن اليهود مكة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، ولم يكن لهم قبور فيها.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

قتال الخوارج:

كانت العراق محطّ الأنظار إذ فيها النزاعات بين الفرق، وعليها الصراعات بين المختلفين. ففي أيام خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، كانت موضع النزاع بينه وبين أمير الشام مروان بن الحكم ومن بعده ابنه عبد الملك اللذين كانا يدّعيان الخلافة. كما كان الخوارج يسيطرون على بعض الجهات وينشرون الفزع.

وكان الخليفة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قد جعل أمر الخوارج للمهلب بن أبي صُفرة، وعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أُسيد. وبعد قتالٍ بـ (سولاف) بين المهلب بن أبي صُفرة والخوارج دام ثمانية أشهرٍ أتى الخوارج خبر مقتل مصعب بن الزبير، فبلغ ذلك الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه، فناداهم الخوارج: ألا تخبروننا ما قولكم في مصعب؟

قالوا: إمام هدىً.

قالوا: فهو وليكم في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم.

قالوا: وأنتم أولياؤه أحياءً وأمواتاً؟ قالوا: ونحن أولياؤه أحياءً وأمواتاً.

قالوا: فما قولكم في عبد الملك بن مروان؟

قالوا: ذاك ابن اللعين، نحن إلى الله منه بُراء، هو عندنا أحلّ دماً منكم.

قالوا: فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم كبراءتنا منكم.

قالوا: وأنتم له أعداء أحياءً وأمواتاً؟ قالوا: نعم نحن له أعداء كعداوتنا لكم.

قالوا: فإن إمامكم مصعباً قد قتله عبد الملك بن مروان، ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك إمامكم، وأنتم الآن تتبرؤون منه وتلعنون أباه! قالوا: كذبتم يا أعداء الله.

فلما كان من الغد تبيّن لهم قتل مصعب، فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان، فأتتهم الخوارج فقالوا: ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يا أعداء، ما نخبركم في قولنا فيه، وكرهوا أن يُكذِّبوا أنفسهم عندهم. قالوا: فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم في الدنيا والآخرة وأنكم أولياؤه أحياءً وأمواتاً، فأخبرونا ما قولكم في عبد الملك؟ قالوا: ذاك إمامنا وخليفتنا ـ ولم يجدوا إذ بايعوه بدّاً من أن يقولوا هذا القول ـ. قالت لهم الأزارقة: أنتم أمس تتبرؤون منه في الدنيا والآخرة،

وتزعمون أنكم له أعداء أحياءً وأمواتاً، وهو اليوم إمامكم وخليفتكم، وقد قتل إمامكم الذي كنتم تولّونه! فأيهما المحق، وأيهما المهتدي، وأيهما الضالّ! قالوا لهم: يا أعداء الله، رضينا بذاك إذ كان وليَ أمورنا، ورضينا بهذا كما رضينا بذاك، قالوا: لا والله، ولكنكم إخوان الشياطين، وأولياء الظالمين، وعبيد الدنيا[١].

بعد مقتل مصعب بعث عبد الملك بن مروان على الكوفة أخاه بشر بن مروان، وبعث على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد. فلما قدم خالد أثبت المهلب بن أبي صُفرة على الأهواز، ولم يلبث أن قُتل عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد وهو يُقاتل الخوارج، وهو أخو أمير البصرة خالد. فكتب إلى عبد الملك:

أما بعد، فإني أُخبرك يا أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أني بعثت عبد العزيز بن عبد الله في طلب الخوارج، وأنهم لقوه بفارس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عبد العزيز لما انهزم عنه الناس، وقُتل مُقاتل بن مِسْمَع، وقدم الفلّ إلى الأهواز. أحببت أن أُعلم أمير المؤمنين

---

(١) تاريخ الطبري.

ذلك ليأتيني رأيه وأمره أنزل عنده إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

فكتب إليه:

أما بعد، فقد قدم رسولك في كتابك، تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج، وبهزيمة من هُزم، وقتل من قُتل، وسألت رسولك عن مكان المهلب، فحدّثني أنه عامل لك على الأهواز، فقبّح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب، المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها! انظر أن تنهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز. وقد بعثت إلى بشر أن يمدّك بجيشٍ من الكوفة، فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأيٍ حتى تُحضره المهلب، وتستشيره إن شاء الله. والسلام عليك ورحمة الله.

فشقّ عليه أنه فَيّل رأيه في بعثه أخيه وترك المهلب، وفي أنه لم يرض رأيه خالصاً حتى قال: أحضره المهلب واستشره فيه.

وكتب عبد الملك إلى بشر بن مروان:

أما بعد، فإني قد كتبت إلى خالد بن عبد الله آمره بالنهوض إلى الخوارج، فسرّح إليه خمسة آلاف رجلٍ، وابعث عليهم رجلاً من قبلك ترضاه، فإذا قضوا غزاتهم تلك صرفتهم إلى الريّ، فقاتلوا عدوّهم، وكانوا في مسالحهم، وجبوا فيئهم حتى تأتي أيام عقبهم فتُعقبهم، وتبعث آخرين مكانهم.

فقطع على أهل الكوفة خمسة آلافٍ وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وقال: إذا قضيت غزاتك هذه فانصرف إلى الري. وكتب له عليها عهداً. وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز، وجاء عبد الرحمن بن محمد ببعث الكوفة حتى وافاهم بالأهواز، وجاءت الأزارقة حتى دنوا من مدينة الأهواز، ومن معسكر القوم، وقال المهلب لخالد بن عبد الله: إني أرى هاهنا سفناً كثيرةً، فضمّها إليك فوالله ما أظنّ القوم إلا مُحرِقيها فما لبث إلا ساعةً حتى ارتفعت خيل من خيلهم إليها فحرّقتها. وبعث خالد على ميمنته المهلب، وعلى ميسرته داود بن قَحذَم من بني قيس بن ثعلبة، ومرّ المهلب على عبد الرحمن بن محمد ولم يُخَنْدِقْ، فقال: يا ابن أخي ما يمنعك من الخندق! فقال: والله هم أهون عليّ من (... الجمل)، قال: فلا يهونوا

عليك يا ابن أخي، فإنهم سباع العرب، لا أبرح حتى تضرب عليك خندقاً ففعل.

فأقاموا نحواً من عشرين ليلةً، ثم إن خالداً زحف عليهم بالناس، فرأوا أمراً هالهم من عدد الناس وعُدّتهم، فأخذوا ينحازون، واجترأ عليهم الناس فكرّت عليهم الخيل، وزحف إليهم فانصرفوا كأنهم على حاميةٍ وهم مولّون لا يرون لهم طاقةً بقتال جماعة الناس وأتبعهم خالد بن عبد الله داود بن قَحذَم في جيش البصرة، وانصرف خالد إلى البصرة، وانصرف عبد الرحمن بن محمد إلى الريّ، وأقام المهلب بالأهواز، فكتب خالد إلى عبد الملك:

أما بعد، فإني أُخبر أمير المؤمنين أصلحه الله أني خرجت إلى الأزارقة الذين مرقوا من الدين، وخرجوا من ولاية المسلمين، فالتقينا بمدينة الأهواز فتناهضنا فاقتتلنا كأشدّ قتالٍ كان في الناس. ثم إن الله أنزل نصره على المؤمنين والمسلمين، وضرب الله وجوه أعدائه، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم، ولا يمنعون ولا يمتنعون، وأفاء الله ما في عسكرهم على المسلمين، ثم أتبعتهم داود بن قَحْذَم، والله إن شاء الله مُهلكهم ومُستأصلهم، والسلام عليك.

فلما قدم هذا الكتاب على عبد الملك كتب عبد الملك إلى بشر بن مروان: أما بعد، فابعث من قِبلك رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في أربعة آلاف فارسٍ، فليسيروا إلى فارس في طلب المارقة، فإن خالداً كتب إليّ يُخبرني أنه قد بعث في طلبهم داود بن قَحْذَم، فمُر صاحبك الذي تبعث ألا يُخالف داود بن قَحْذَم إذا ما التقيا، فإن اختلاف القوم بينهم عون لعدوّهم عليهم. والسلام عليك.

فبعث بشر بن مروان عتّاب بن ورقاء[1] في أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة فخرجوا حتى التقوا هم وداود بن قَحْذَم بأرض فارس، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نفقت خيول عامتهم، وأصابهم الجهد والجوع،

---

(١) عتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو، أبو ورقاء الرياحي اليربوعي التميمي: قائد من الأبطال، ولاّه مصعب بن الزبير إمارة إصبهان، وانتدبه لقتال الخارجين عليه في الري، فسار إليهم وقاتلهم ودخل الري عنوة، ومهد أمورها.
وانتظم بعد ذلك في أمراء جيش المهلب. ثم انتدبه الحجاج لقتال شبيب بن يزيد بعد أن عجزت جيوشه عن مقاومته، وسير معه جيشاً كبيراً من أهل الشام والعراق، فلحق شبيباً وقاتله قتالاً مراً، وقتل في وقعة له معه تعرف بيوم عتاب، قتله عامر بن عمير التغلبي من أصحاب شبيب سنة سبعٍ وسبعين.

ورجع عامة ذينك الجيشين مشاةً إلى الأهواز.

الخوارج في البحرين:

خرج أبو فُديك[1]، وهو من بني قيس بن ثعلبة، فغلب على البحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي. فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطريّ بن الفجاءة الأهواز وأمر أبي فُديك، فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جندٍ كثيفٍ إلى أبي فُديك، وسار أمية على فرسٍ له حتى دخل البصرة في ثلاثة أيامٍ.

وأضاف عبد الملك بعد ذلك البصرة إلى أخيه بشر بن مروان فأصبح أمير العراقين، وعزل خالد بن عبد الله عن البصرة.

---

(١) أبو فديك: عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب، ثائر من الحرورية (نسبة إلى حروراء بالكوفة) كان أبو فديك في أول أمره من أتباع نافع بن الأزرق رأس الأزارقة، ثم آلت إليه إمرة الخوارج أيام عبد الله بن الزبير، ثار في البحرين سنة اثنتين وسبعين وغلب عليها. فبعث خالد بن عبد الله بن خالد أمير البصرة أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف لقتالهم فهزمهم. ثم سار إليه خالد القسري بعشرة آلاف من الكوفة والبصرة، فقاتلهم، وصمد لهم إلى أن قتلوه، وقتلوا من أصحابه نحو ستة آلاف، وأسروا ثمانمائة وذلك سنة ثلاثٍ وسبعين.

أمر خراسان:

كان عبد الله بن خازم السلمي يتولّى أمر خراسان لخليفة المسلمين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فكتب عبد الملك إلى عبد الله بن خازم يدعوه إلى بيعته، ويُطعمه خراسان سبع سنين، وذلك بعد مقتل مصعب بن الزبير، فأبى عبد الله بن خازم، وقال لرسول عبد الملك سورة بن أشيم النميري: لولا أن أُضرّب بين بني سُليم وبني عامر لقتلتك، ولكن كُل هذه الصحيفة، فأكلها.

فكتب عبد الملك إلى بُكَيْر بن وشاح أحد بني عوف بن سعد ـ وكان خليفة عبد الله بن خازم على مرو ـ بعهده على خراسان، ووعده ومنّاه، فخلع بُكَيْر بن وشاح بيعة عبد الله بن الزبير، ودعا إلى عبد الملك بن مروان، فأجابه أهل مرو، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بُكَيْر بأهل مرو، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر الذين كانوا يقاتلونه بقيادة بحير بن ورقاء الصريمي، فترك عبد الله بن خازم بحيراً، وأقبل إلى مرو يريد أن يأتي ابنه بـ (ترمذ) فلحقه بحير فأدركه قبل مرو بثمانية فراسخ فقاتله، وقُتل عبد الله بن خازم، وبايعت خراسان بعد ذلك عبد الملك.

المغرب:

كانت بلاد المغرب بعيدةً عن الخلافات القائمة في المشرق، كما أن الوضع في مصر مستقر لذا كان المجاهدون ينطلقون في سبيل الله، لا يبالون بما يجري في الشرق، ولا يهتمون بمن آل إليه الأمر، فجهادهم في سبيل الله، وحياتهم ومماتهم كذلك.

وصلت فتوحات عقبة بن نافع[1] إلى بلاد السوس الأقصى على ساحل المحيط الأطلسي، وعندما قفل راجعاً عاد على الطريق الصحراوي فاعترضه كمين فاستشهد فتولّى أمر إفريقية خليفته على القيروان زهير بن قيس البلوي[2] فتابع سبيل الجهاد حتى استشهد عام

---

(١) عقبة بن نافع الفهري: ولد قبل الهجرة بسنةٍ، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص الذي وجهه عام ٤٢ إلى إفريقية، ففتح كثيراً من المناطق، وبنى القيروان عام ٥٠، عزله مسلمة بن مخلد والي مصر، وأعطى إفريقية لمولاه أبي المهاجر دينار، ثم عاد عقبة والياً سنة ٦٢ على إفريقية، فوصل إلى سواحل المحيط الأطلسي في بلاد السوس، واستشهد أثناء عودته في بلاد الزاب عام ٦٣.

(٢) زهير بن قيس البلوي، أبو شداد: شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، وعمرة آنذاك عشرون سنة، وسار في جيش عقبة بن نافع، واستخلفه على مغداش قرب سرت في ليبيا قريباً من ساحل البحر. واستخلفه عقبة على القيروان حين سار إلى=

تسعةٍ وستين فتبلبل الوضع في إفريقية حتى أرسل إليها عبد العزيز بن مروان بن الحكم والي مصر حسان بن النعمان الغساني[1] إلى إفريقية فرجع الفتح من جديد.

= المغرب سنة ٦٢، وبعد استشهاد عقبة اضطر زهير أن ينتقل إلى برقة تحت ضغط أعدائه من الروم والبربر، ورجع إلى مصر، وكان ممن بايع عبد الله بن الزبير، وسار لردّ مروان بن الحكم عن مصر، ولكنه هزم وعفا عنه مروان، وأرسله إلى برقة، وكُلّف عام ٦٩ بغزو إفريقية، واستشهد عام ٧٦.

(١) حسان بن النعمان الغساني: أهله من الغساسنة الذين كانوا ملوك الشام قبل الإسلام، وأسلم عدد منهم بعد الفتح، وبقي آخرون على ديانتهم النصرانية، اختير والياً على إفريقية عام ٧٤، فجاهد واستقر له أمر إفريقية، وبنى تونس، ثم عزل عام ٨٥ بعد أن ولّى على المغرب رجلاً من قبله يدعى أبا صالح، ورفض بعدها تولي منصب لبني أمية، وخرج غازياً لأرض الروم تحت لواء مسلمة بن عبد الملك، فمات هناك سنة ٨٧.

الفصل الثالث

خلافة عبد الملك

بعد مقتل الخليفة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين أصبح عبد الملك بن مروان خليفةً للمسلمين حيث شغر منصب الخلافة بمقتل الخليفة السابق، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ، بايع المسلمون عبد الملك خليفةً لهم أو أجمعوا على بيعته.

أما بعض المؤرخين فيعدّون مروان بن الحكم خليفةً منذ بيعة الجابية في النصف من ذي القعدة سنة أربع وستين غير أن هذه البيعة غير صحيحةٍ حيث لم تتوفّر فيها شروط البيعة إذ كانت محليةً هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانية فقد كان منصب الخلافة غير شاغرٍ حيث كان يشغله عبد الله بن الزبير، بل إن مروان بن الحكم نفسه كان في طريقه لمبايعة ابن الزبير، ولا يصحّ عقد بيعةٍ لخليفةٍ مع وجود خليفةٍ قائمٍ بالأمر. ولو حدث هذا

ووقع فإن صاحب البيعة الثاني يُقاتل إذ يُعدّ خارجاً على الجماعة. وعلى هذا يكون مروان بن الحكم ليس بخليفةٍ بل وخارجاً على الجماعة ويجب قتاله.

ويعدّ هؤلاء المؤرّخون عبد الملك خليفةً من يوم وفاة والده مروان بن الحكم يوم ١٣ رمضان سنة خمسٍ وستين بناءً على عهد أبيه، غير أن ما بني على باطلٍ فهو باطل فإذا كانت خلافة مروان غير صحيحةٍ فشكل طبيعي أن خلافة عبد الملك غير صحيحةٍ حيث بُنيت على عهد من خليفةٍ غير شرعيٍ، إضافةً إلى أن البيعة التي تمّت لعبد الملك كانت محليةً لم تتعدّ الشام ومصر أما بقية الأمصار الإسلامية فكانت على بيعة عبد الله بن الزبير القائم بأمر الخلافة أي أن منصب الخلافة غير شاغرٍ، ومنصب الخلافة لا يفرغ إلا بوفاة الخليفة، أو اعتزاله (استقالته)، أو مرضه الذي يحول دون إمكاناته القيام بواجب الخلافة، أو الإخلال بشروط البيعة كوجود الكفر البُواح، وكمخالفة الأصول الإسلامية وعند هذا يضطر المسلمون لسحب الثقة وخلعه والقيام عليه إن أبى. وعند وفاة مروان بن الحكم وادّعاء عبد الملك الخلافة، ومبايعة من حوله له غير صحيح إذ الخليفة عبد الله بن الزبير لا يزال على قيد الحياة، ولم يعتزل، وليس

بالمريض، ولم يُحدث بالإسلام شيئاً.

ولكن عندما مات ابن الزبير أصبح المجال مفتوحاً لبيعة خليفةٍ، وقد بويع عبد الملك فبيعته صحيحة وبالتالي فخلافته شرعية بدءاً من الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين، وما سبق ذلك فلم يكن خليفةً بل أميراً على الشام ومصر خارجاً على الجماعة.

واستمرّت خلافة عبد الملك بن مروان ثلاث عشرة سنةً وأربعة أشهرٍ تقريباً من مقتل الخليفة عبد الله بن الزبير في ١٧ جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين إلى وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان في ١٥ شوال سنة ستٍ وثمانين.

الولايات:

اختلف وضع الولايات في الدولة الإسلامية حسب الولاة.

١ ـ **الشام**: استقرّ الوضع في الشام لبني أمية تماماً.

٢ ـ **الحجاز**: لم يزل الحجاج مقيماً بمكة حتى أقام للناس الحج عام ثلاثة وسبعين، وهو والٍ على مكة، واليمن، واليمامة، أما المدينة فكان عليها

طارق بن عمرو، ثم إن عبد الملك قد عزله، وأضافها إلى الحجاج.

استقضى الحجاج على اليمن أبا إدريس الخولاني.

وفي ٧٥ أعطى عبد الملك نيابة المدينة ليحيى بن أبي العاص، وعزل الحجاج عنها. ثم عُزل يحيى في السنة التالية، وتولّى أمر المدينة أبان بن عثمان بن عفان[١] حتى عام اثنين وثمانين حيث عُزل لثلاث عشرة ليلةً خلت من جمادى الآخرة، وتولّى أمرها بعده هشام بن إسماعيل المخزومي[٢].

٣ ـ مصر: كان الوالي على مصر عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان، وولي عهده أيضاً، واستمر عبد العزيز على مصر حتى توفي سنة خمسٍ وثمانين، فخلفه عبد الله بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) أبان بن عثمان بن عفان، أبو سعد: الإمام الفقيه، الأمير، من فقهاء المدينة العشرة، تولى إمرة المدينة سبع سنوات، وشهد معركة الجمل مع عائشة، ودوّن ما سمع من السيرة والمغازي. أصيب بالفالج وشيء من الصمم. وتوفي سنة ١٠٥.

(٢) هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد المخزومي: كانت ابنته زوجة عبد الملك بن مروان، عزل عن المدينة ٨٧ وتولى أمرها بعدها عمر بن عبد العزيز.

٤ ـ **إفريقية**: كانت إفريقية في بادئ الأمر تتبع مصر، ويسير الوالي إلى إفريقية من قبل الوالي في مصر. ثم أصبحت سنة أربعٍ وسبعين ولايةً مستقلةً، وتولّى أمرها حسّان بن النعمان الغسّاني، ثم عُزل سنة ثمانٍ وسبعين، وتولّى أمرها موسى بن نصير(١).

٥ ـ **العراق**: بقيت أرض مسرح الأحداث ومحطّ الأنظار، وإذا كانت من قبل منطقة صراعٍ بين الفئات

---

(١) موسى بن نصير، أبو عبد الرحمن: من لخم، ولد سنة ١٩، وكان أبوه من سبايا عين التمر الذين سباهم خالد بن الوليد سنة ١٢، وأعتق بنو أمية نصيراً، فأقام بالشام، وأصبح من حرس معاوية بن أبي سفيان، ثم رئيساً عليهم. وتولى موسى البحر، وغزا قبرص، وكان نائباً له عليها. ثم كان مع الضحاك بن قيس في مرج راهط فلما هزم الضحاك لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان فحماه وسار معه إلى مصر.
وكان وزير بشر بن مروان في العراق سنة ٧٢، وخاف الحجاج بعد وفاة بشر، فانتقل إلى مصر إلى عبد العزيز بن مروان الذي عزل حسان بن النعمان عن إفريقية، وأعطاها إلى موسى بن نصير، فأخضع المغرب، وتقدم إلى الأندلس ففتحها، ثم سار إلى الشام بدعوة من الوليد بن عبد الملك، وولى مكانه ابنه عبد العزيز بن موسى، وعندما وصل وهو في طريق عودته إلى القيروان أبقى ابنه عبد الله بن موسى عليها، ووصل إلى دمشق، وذهب للحج مع الخليفة سليمان بن عبد الملك فمات بالمدينة سنة سبعٍ وتسعين.

المختلفة بني أمية ومن خالفهم، وهي الآن مكان الصراع الرئيسي بين الخلافة من جهةٍ وفرقة الخوارج من جهةٍ ثانيةٍ.

عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة، وأضافها إلى أخيه بشر بن مروان أمير الكوفة، فرحل بشر إليها، واستخلف على البصرة عمرو بن حريث[1]. وكان على قضاء الكوفة شريح بن الحارث[2]. وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة.

وكانت خراسان تتبع البصرة، وعليها بكير بن وشاح التميمي.

---

(١) عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي. كان عمرو من بقايا أصحاب رسول الله، ﷺ، الذين نزلوا الكوفة. له صحبة ورواية، كما روى عن أبي بكر، وابن مسعود. ولي الكوفة لزياد بن أبيه، ولابنه عبيد الله، وتوفي سنة خمس وثمانين.

(٢) شريح بن الحارث بن قيس بن جهم الكندي: الفقيه أبو أمية، أسلم في حياة الرسول، ﷺ، وانتقل إلى اليمن زمن الصديق. حدّث عن عمر، وعلي، وعبد الرحمن بن أبي بكر. ولاّه عمر قضاء الكوفة، وبقي على قضائها ستين سنة، وقضى سنةً بالبصرة، توفي سنة ثمانٍ وسبعين، وقد عاش مائة وعشر سنين، وقد استعفى من القضاء قبل موته بسنة.

وقد ولّى عبد الملك لحرب الأزارقة المهلب بن أبي صُفرة، فوجد بشر بن مروان على المهلب إذ جاء تعيينه من الخليفة فما عليه إلا أن يطيع، فطلب من أمير الكوفيين عبد الله بن مخنف بالأمر دونه، وأن لا يقبل له رأياً ولا مشورةً، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل (بَرامَهُرْمُز)، فلم يقم عليها عشراً حتى جاء نعي بشر بن مروان، وقد مات بالبصرة، واستخلف عليها خالد بن عبد الله بن خالد.

عزل عبد الملك عن خراسان بكير بن وشاح التميمي، وولّى مكانه أمية بن عبد الله بن خالد[1]، فعرض على بكير بن وشاح أن يكون على شرطته فأبى، واقترح بكير أن يكون نائباً له على إقليم (طخارستان)[2]، فخوّفوه منه فتركه مقيماً عنده.

وأعطى عبد الملك ولاية العراق بعد وفاة بشر بن

---

(١) أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس القرشي، الأموي، أحد الأشراف، ولي إمرة خراسان لعبد الملك بن مروان. وحدّث عن ابن عمر، وروى عنه عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي، والمهلب بن أبي صفرة.

(٢) طخارستان: إقليم جبلي في شمال شرقي أفغانستان اليوم.

مروان إلى الحجاج بن يوسف إذ رأى أنه لا يسدّ عنه أهل العراق غير الحجاج لسطوته، وقهره، وقسوته، وشهامته. والحجاج يحب الشهرة، ونلاحظ كيف عرض نفسه لقتال خليفة المسلمين عبد الله بن الزبير، وفي البيت الحرام، وهذا أمر لا يقدم عليه إلا من يريد الظهور. وقام بما قام به من ضربٍ للكعبة، وقتلٍ للخليفة وصلبٍ له و... فارتفع اسمه، وخاف الناس بطشه، ورهبوه، فأحبّ عبد الملك أن يلجم العراقيين به. فكتب إليه بولاية العراق وهو بالمدينة. فسار من المدينة إلى العراق في اثني عشر راكباً، فدخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها، وكان تحتهم النجائب، فنزل قريب الكوفة، فاغتسل، واختضب، ولبس ثيابه، وتقلّد سيفه، وألقى عذبة العمامة بين كتفيه، ثم سار فنزل دار الإمارة، وذلك يوم الجمعة، وقد أَذّن المؤذّن الأول لصلاة الجمعة، فخرج عليهم وهم لا يعلمون. فصعد المنبر، وجلس عليه، وأمسك عن الكلام طويلاً، وقد شخصوا إليه بأبصارهم، وجثَوا على الرُّكب، وتناولوا الحصى ليحذفوه بها، وكانوا قد حصبوا الذي قبله. فلما سكت أبهتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه، فكان أول ما تكلم به أن قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، والله إن كان أمركم ليهمّني

قبل أن آتي إليكم، وقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي، ولقد سقط البارحة مني سوطي الذي أؤدبكم به، فاتخذت هذا مكانه ـ وأشار إلى سيفه ـ ثم قال: والله لآخذن صغيركم بكبيركم، وحرّكم بعبدكم، ثم لأرصعنّكم[1] رصع الحداد الحديدة، والخبّاز العجينة. فلما سمعوا كلامه، جعل الحصى يتساقط من أيديهم. وقيل: إنه دخل الكوفة في شهر رمضان ظهراً، وأتى المسجد، وصعد المنبر، وهو معتجر بعمامةٍ حمراء مُتلثّم بطرفها، ثم قال: عليّ بالناس، فظنّه الناس وأصحابه من الخوارج، فهمّوا به، حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجهه اللثام، وقال:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني[2]

ثم قال: أما والله إني لأحمل الشيء محمله، وأحذوه بنعله، وأحزمه بفتله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء تترقرق بين

---

(١) الرصع: الضرب باليد بقوة، وشدة الطعن، ودق الحب بين حجرين.

(٢) هذا البيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحي.

العمائم واللحى، قد شمّرت عن ساقها فشمّري ثم أنشد:

هـذا أوان الـشـدّ فـاشـتـدي زيـم
قـد لـفّـهـا الـلـيـل بـسـوّاقٍ حُـطَـم
لـيـس بـراعـي إبـلٍ ولا غـنـم
ولا بـجـزّارٍ عـلـى ظـهـر وضـم
قـد لـفّـهـا الـلـيـل بـعَـصْـلَـبِـيّ
أروع خـــراجٍ مـــن الـــدّويّ
مـــهـــاجـــرٍ لـــيـــس بـــأعـــرابـــي

ثم قال: إني والله يا أهل العراق، ما أُغمز بغمازٍ، ولا يقعقع لي بالشنان، ولقد فررت عن ذكاءٍ، واختبرت عن تجربةٍ، وجريت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين ـ عبد الملك بن مروان ـ نثر كنانته، ثم عجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مغمزاً فوجّهني إليكم، فأنتم طالما رتعتم في أودية الفتن وسلكتم سبيل الغيّ، واخترتم جدد الضلال. أما والله لألْحُونّكم لَحْوَ العود، ولأَعْصِبنّكم عَصْب السلمة[1]، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل. وإني والله لا أَعِد إلا

(١) أعصب: أقطع. السلمة: نبات العضاة.

وفيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياي وهذه الجماعات، وقيلًا وقالاً، وما يقول، وفيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمُنَّ على سبيل الحق أو لأدعنّ لكل رجلٍ منكم شُغلًا في جسده. من وجدت بعد ثالثةٍ من بعث المهلب سفكت دمه، وأنهبت ماله[1].

ثم نزل ودخل منزله، ولم يزد على ذلك.

ويقال: إنه لما صعد المنبر، واجتمع الناس تحته، أطال السكوت، حتى إن محمد بن عمير أخذ كفاً من حصىً وأراد أن يحصبه بها، وقال: قبّحه الله ما أعياه وأدمّه! فلما نهض الحجاج وتكلّم بما تكلّم به ـ جعل الحصى يتناثر من يده وهو لا يشعر به، لما يرى من فصاحته وبلاغته.

ويقال: إنه قال في خطبته هذه: شاهت الوجوه، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[2]. فأنتم أولئك فاستووا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى

---

(١) يقصد الذين رجعوا عنه لما سمعوا بموت بشر بن مروان.

(٢) سورة النحل: الآية ١١٢.

تَدِرُّوا، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تنقادوا، وأقسم بالله لتُقْبِلُنّ على الإنصاف ولتدعُنّ الإرجاف، وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان، والهبر وما الهبر أو لأَهْبُرَنّكم بالسيف هبراً يدع النساء أيامى، والأولاد يتامى حتى تمشوا السُّمّهي[1]، وتُقلعوا عن ها وها. إياي وهذه الزرافات، لا يركبن الرجل منكم إلا وحده. ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبيَ فيء، ولا قوتل عدوّ، ولعُطّلت الثغور، ولولا أنهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً، وقد بلغني رفضكم المهلب، وإقبالكم على مصركم عصاةً مخالفين، وإني أقسم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثالثةٍ إلا ضربت عنقه.

ثم دعا العرفاء فقال: ألحقوا الناس بالمهلب، وأتوني بالبراءات بموافاتهم، ولا تُغلقنّ أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضي هذه المدة.

فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيراً في السوق، فخرج حتى جلس على المنبر، فقال: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق! إني سمعت تكبيراً في الأسواق ليس بالتكبير الذي يُراد به الترغيب،

---

(١) السمّهى: تتفرقوا في كل وجه.

ولكنه تكبير يراد الترهيب. وقد عصفت عجاجة تحت قصف، يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء والأيامى، ألا يربع كل رجلٍ منكم على ظلعه، ويحسن حقن دمه، ويبصر موضع قدمه. فأقسم بالله، لأوشك أن أوقع بكم وقعةً تكون نكالاً لما قبلها، وأدباً لما بعدها.

فقام إليه عمير بن ضابئ التميمي ثم الحنظلي، فقال: أصلح الله الأمير، أنا في هذا البعث، وأنا شيخ كبير وعليل، وهذا ابني هو أشبّ مني، قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابئ التميمي، قال: أسمعت كلامنا بالأمس؟ قال: نعم، قال: ألست الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال: بلى. قال: وما حملك على ذلك؟ قال: كان حبس أبي، وكان شيخاً كبيراً، قال: أوليس هو الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني

تركت على عثمان تبكي حلائله

ثم قال الحجاج: إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصرين، ثم قال: قم إليه يا حرسيّ فاضرب عنقه، فقام إليه فضرب عنقه، وانتهب ماله. وأمر منادياً فنادى في الناس: ألا إن عمير بن ضابئ، تأخّر بعد سماع النداء ثلاثاً فأمرنا بقتله، ألا فإن ذمّة الله بريئة ممن بات

الليلة من جند المهلب، فخرج الناس فازدحموا على الجسر، وخرجت العرفاء إلى المهلب وهو بـ (رَامَهُرْمُز) فأخذوا كتبه بالموافاة، فقال المهلب: قدم العراق اليوم رجل ذكر. اليوم قوتل العدو.

قال ابن أبي عبيدة في حديثه: فعبر الجسر تلك الليلة أربعة آلاف من مَذْحج.

ويروى أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابئ حتى قال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير، إن هذا جاء إلى عثمان بعد ما قُتل فلطم وجهه. فأمر الحجاج عند ذلك بقتله.

ويقال: إن عنبسة بن سعيد قال للحجاج: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا أحد قتلة أمير المؤمنين عثمان، فقال الحجاج: يا عدوّ الله أفلا إلى أمير المؤمنين بعثت بديلًا، ثم أمر بضرب عنقه.

وبعث الحجاج نائباً على البصرة من جهته الحكم بن أيوب الثقفي وأمره أن يشتدّ على خالد بن عبد الله، ثم ركب الحجاج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة أبا يعفور[1]. وقام في أهل البصرة خطيباً فخطبهم

---

(١) أبو يعفور: واقد العبدي: من ثقات التابعين، حدّث عن ابن عمر، وأنس بن مالك، وعبد الله بن أبي أوفى، ومصعب بن سعد.

نظير ما خطب أهل الكوفة من الوعيد والتشديد والتهديد الأكيد، ثم أُتي برجلٍ من بني يشكر، فقيل: هذا عاصٍ، فقال: إن بي فتقاً، وقد عذرني بشر بن مروان، وهذا عطائي مردود على بيت المال، فلم يقبل منه، وأمر بقتله فقُتل، ففزع أهل البصرة، وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة (رَامَهُرْمُز)، وعليهم عبد الله بن الجارود، وخرج إليهم الحجاج في شعبان سنة خمس وسبعين في أمراء الجيش، فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً، وقُتل أميرهم عبد الله بن الجارود في رؤوس من القبائل معه. وأرسل الحجاج إلى المهلب، وعبد الرحمن بن مخنف[1] فأمرهما بمناهضة الأزارقة، فنهضا بمن معهما إلى الخوارج الأزارقة، فأجلوهم عن أماكنهم من (رَامَهُرْمُز) بأيسر قتالٍ فهربوا إلى أرض كازرون من إقليم سابور، وسار الناس وراءهم فالتقوا في العشر الأواخر من رمضان.

فلما كان الليل بيّت الخوارج المهلّب من الليل فوجدوه قد تحصّن بخندقٍ حول معسكره. فجاءوا إلى

---

(١) عبد الرحمن بن مخنف الأزدي: قائد من الشجعان، انتهت إليه سيادة أزد شنوءة، كان مع المهلب، قتل أثناء قتاله الخوارج سنة خمسٍ وسبعين.

عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترزٍ ـ وكان المهلّب قد أمره بالاحتراز بخندقٍ حوله فلم يفعل ـ فاقتتلوا في الليل، فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفةً من جيشه، وهزموهم هزيمةً منكرةً.

ويقال: إن الخوارج لما التقوا الناس في هذه الوقعة ـ كان ذلك يوم الأربعاء لعشرين بقين من رمضان سنة خمس وسبعين، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يُعهد مثله من الخوارج، وحملت الخوارج على جيش المهلب بن أبي صفرة فاضطروه إلى معسكره فجعل عبد الرحمن يمدّه بالخيل بعد الخيل، والرجال بعد الرجال، فمالت الخوارج إلى معسكر عبد الرحمن بعد العصر، فاقتتلوا معه إلى الليل، فقُتل عبد الرحمن أثناء الليل، وقُتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه.

فلما كان الصباح جاء المهلّب فصلّى عليه، ودفنه، وكتب إلى الحجاج بمهلكه، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يُعزّيه، فنعاه عبد الملك إلى الناس بمنىً، وأمّر الحجاج مكانه عتّاب من ورقاء، وكتب إليه أن يطيع المهلّب، فكره ذلك، ولم يجد بُدّاً من طاعة الحجاج، وكره أن يخالفه. فسار إلى المهلب، فجعل لا يطيعه إلا ظاهراً، ويعصيه كثيراً، ثم تقاولا، فهمّ المهلّب أن يُوقع

بعتّاب، ثم حجز بينهما الناس، فكتب عتّاب إلى الحجاج يشكو المهلب، فكتب إليه أن يقدم عليه، وأعفاه من ذلك، وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب[1].

وقال حُمَيد بن مسلم يرثي عبد الرحمن بن مخنف:

إن يقتلوك أبا حكيم غدوةً
فلقد تَشُدُّ وتَقْتُلُ الأبطالا
أو يُثْكِلونا سيّداً لمسوَّدٍ
سمحَ الخليقة ماجداً مِفضالا
فَلَمِثل قتلك هدّ قومك كلهم
من كان يحمل عنهم الأثقالا
من كان يكشف غُرمَهم وقتالهم
يوماً إذا كان القتال نزالا
أقسمت ما نيلت مقاتل نفسه
حتى تدرّع من دمٍ سربالا

---

(١) حبيب بن المهلب بن أبي صفرة: أحد شجعان العرب وأشرافهم أيام عبد الملك، كانت له ولاية كرمان، وعزله الحجاج عنها سنة سبع وثمانين، ثم صحب أخاه يزيد بن المهلب في أعماله وغزواته، وقتل معه عام ١٠٢ في خروجه على يزيد بن عبد الملك.

وَتَنـاجَـزَ الأبـطـال تـحـت لـوائـه
بـالـمشـرفـيّة فـي الأكـفّ نـصـالا
يـومـاً طـويـلاً ثـم آخـر لـيـلـهـم
حين استبانوا في السماء هلالا
وتكشّفت عنه الصفوفُ وخيلُه
فـهـنـاك نـالـتـه الـرمـاح فـمـالا
ورثاه سراقة بن مرداس البارقي فقال:
أعينيّ جودا بالدموع السواكب
وكُونا كواهي شنّةٍ مع راكب
على الأزد لما أن أُصيب سَراتُهُم
فنُوحا لعيشٍ بعد ذلك خائب
نُرَجّي الخلود بعدهم وتعوقنا
عوائق موتٍ أو قراع الكتائب
وكُنّا بخيرٍ قبل قتل ابن مِخنفٍ
وكل امرئٍ يوماً لبعض المذاهب
أَمارَ دموعَ الشيب من أهل مِصره
وعجّل في الشُّبّان شَيْبُ الذوائب
وقاتل حتى مات أكرم مِيتةً
وخرّ على خدٍّ كريمٍ وحاجب
وضارب عنه المارقين عصابةٌ
من الأَزْدِ تمشي بالسيوف القواضب

فلا ولدت أُنثى ولا آبَ غائب
إلى أهله إن كان ليس بآيب
فيا عينُ بكّي مِخنفاً وابن مِخنفٍ
وفرسان قومي قُضرَةً وأقاربي

وقال سراقة أيضاً يرثي عبد الرحمن بن مخنف:

ثوى سيّدُ الأَزْدين أَزْد شَنوءةٍ
وأَزد عُمان رهن رمسٍ بكازر
وضارب حتى مات أكرم مِيتةً
بأبيض صافٍ كالعقيقة باتر
وصُرّع حول التلّ تحت لوائه
كرام المساعي من كرام المعاشر
قضى نحبه يوم اللقاء ابن مِخنفٍ
وأدبر عنه كلّ أَلوثَ داثر
أمدّ فلم يُمْدَد فراح مُشمّراً
إلى الله لم يذهب بأثواب غادر

وحجّ عبد الملك بن مروان سنة خمس وسبعين، وكان في الحج في ذلك العام شبيب بن يزيد الخارجي[1]. فهمّ شبيب بالفتك بالخليفة عبد الملك،

---

(١) شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني، أبو الضحاك، أحد=

وبلغ عبد الملك شيء من خبرهم فكتب إلى الحجاج بعد انصرافه يأمره بطلبهم.

وكان قد خرج داود بن النعمان المازني بنواحي البصرة، فبعث إليه الحجاج سريةً قتلته.

وأخذ بطلب أصحاب شبيب، وكان منهم صالح بن مُسَرّح التميمي[1]، وهو زعيمهم، ومصاد بن

= الأبطال، وأحد الثائرين الخوارج على بني أمية، كان داهية، يطمح إلى السيادة، خرج في نواحي الموصل على الحجاج الثقفي، ونادى بالخلافة فبايعه عشرون ومائة، ثم قويت شوكته، فوجّه إليه الحجاج خمسة قواد، قتلهم واحداً بعد واحدٍ، ومزّق جموعهم، ثم رحل من الموصل يريد الكوفة فقصده الحجاج بنفسه، فنشبت بينهما معارك فشل فيها الحجاج، فأنجده عبد الملك بجيشٍ من الشام، ولي قيادته سفيان بن الأبرد الكلبي، فتكاثر الجمعان على شبيب، فقُتل كثيرون من أصحابه، ونجا بمن بقي منهم، فمرّ بجسرٍ على دجلة فنفر به فرسه فألقاه في الماء، وعليه الحديد فغرق وذلك سنة سبعٍ وسبعين. وكان مولده سنة ستٍ وعشرين يوم عيد النحر.

(١) صالح بن مُسرِّح التميمي: زعيم الصفرية، وأول من خرج منهم، وكان يقيم بأرض دارا والموصل، وله أصحاب فدعاهم إلى الخروج، وإنكار الظلم، وجهاد المخالفين لهم، فأجابوه، ووفد عليهم شبيب بن يزيد، فكان قائد جيشه، وجرت معارك بينهم وبين أمير الجزيرة محمد بن مروان فقتل صالح سنة ستٍ وسبعين.

يزيد بن نُعيم[1] أخو شبيب، والمحلل بن وائل اليشكري، والصقر بن حاتم من بني تيم بن شيبان، وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بني مُحَلّم، والفضل بن عامر من بني ذهل بن شيبان.

كتب شبيب بن يزيد إلى صالح بن مسرّح يستبطئه بالخروج، ويحثّه عليه، ويندب إليه، ثم قدم شبيب على صالح وهو بـ (دارا) فتواعدوا وتوافقوا على الخروج في مستهل صفر سنة ست وسبعين.

ولما حان الموعد المقرر، اجتمع رؤوس الصفرية ليلة الأربعاء فقام صالح بن مُسرّح، فأمرهم بتقوى الله، وحثّهم على الجهاد، وأن لا يقاتلوا أحداً حتّى يدعوه إلى الدخول معهم، وخرجوا وكانوا عشرين ومائةً، ثم مالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة، فأخذوها فنفروا بها، فأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلةً، وتحصّن منهم أهل دارا، ونصيبين، وسنجار، واستخفّ بهم محمد بن مروان فبعث إليهم خمسمائة

---

(١) مصاد بن يزيد: أخو شبيب، من الأبطال، شهد معه أكثر وقائعه، وكان ثقته في الكروب ومعوانه الأكبر على الملاحم قتله خالد بن عتاب الرياحي على أبواب الكوفة قبل مقتل شبيب.

فارسٍ بإمرة عديّ بن عديٍّ بن عميرة من بني الحارث بن معاوية بن ثور، ثم أردفه بخمسمائة آخرين، فسار من حرّان بألف فارسٍ فلما التقوا مع الخوارج هزمتهم الخوارج هزيمةً شنيعةً بالغةً، واحتووا على ما في معسكرهم، ورجع فلّهم إلى محمد بن مروان، فغضب، وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جعونة، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن الحرّ، وقال لهما: أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس، فساروا إليهم في ثلاثة آلاف مقاتل، والخوارج في نحو مائة وعشرة، فلما انتهوا إلى (آمد) توجّه صالح في شطر الناس إلى خالد بن الحرّ، ووجّه شبيباً في الباقي إلى الحارث بن جعونة فاقتتل الناس قتالاً شديداً إلى الليل، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن الآخر، وقد قُتل من الخوارج نحو السبعين، وقتل من أصحاب محمد بن مروان نحو الثلاثين، وهربت الخوارج في الليل، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عميرة، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل، وليس مع صالح سوى تسعين رجلاً فالتقى معهم، وقد جعل صالح أصحابه ثلاث فرق، فهو في فرقة، وشبيب عن يمينه في فرقة، وسويد بن سليمان عن يساره في فرقة.

حمل الحارث بن عميرة على الخوارج فصبروا على قلّتهم صبراً شديداً، ثم انكشف سويد بن سليمان، ثم قتل أميرهم صالح بن مُسرّح، وصُرع شبيب عن فرسه، فالتفّ عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك، ولكن بقوا قلّة فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً، فلما رجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج من الباب، فبيّتوا جيش الحارث بن عميرة، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وهرب الناس، فاحتاز شبيب وأصحابه ما في معسكرهم، وكان جيش الحارث بن عميرة أول جيشٍ هزمه شبيب. وكان مقتل صالح بن مُسرّح يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلةً بقيت من جمادى الآخرة سنة ستٍ وسبعين.

بعد مقتل صالح بن مسرّح بايعت الخوارج شبيب بن يزيد، فانتصر على جيشٍ للحجاج، وأخذ داوياً للحجاج، وأشاع أنه ينوي أن يغزو المدائن، ففرّ من فيها من الجند إلى الكوفة، فلما وصلوا إلى الحجاج جهّز جيشه قوامه أربعة آلاف مقاتل وسيّره لقتال شبيب، فمرّ الجيش على المدائن، ثم خرج في طلب شبيب،

فكان شبيب يسير أمامهم قليلاً قليلاً، وهو يُظهر لهم أنه خائف منهم، ولكنه يكرّ على مقدمتهم فيهزمها، وينهب ما معها. والحجاج يلحّ في طلب شبيب، ويرسل له السرايا، والبعوث، والمدد، وشبيب لا يبالي بأحد وليس معه من أصحابه سوى مائةٍ وستين فارساً، ثم اتجه شبيب نحو الكوفة، وهو يريد أن يحاصرها، فخرج إليه الجيش كاملاً إلى خارجها لقتاله، وبلغه ذلك فلم يبال، بل إن جيش الكوفة قد خاف شبيباً، وهمّ أن يعود إلى الكوفة يتحصّن فيها. ثم إن شبيباً قد ركب بغلةً، وحمل عمود حديدٍ وتقدّم إلى أمير الجيش الذي يقابله، وهو سعيد بن المجالد فضرب بالعمود فقتله، وحمل على الجيش الآخر فصرع أميره، وهرب الناس من بين يديه.

مضى شبيب نحو الكوفة من الجنوب، وقتل من وجد في طريقه. وخرج الحجاج من الكوفة هارباً إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، وما أن اقترب شبيب من الكوفة حتى كتب عروة إلى الحجاج يعلمه بذلك فأسرع الحجاج إلى الكوفة ودخلها عصراً، ووصل شبيب إلى المربد وقت الغروب، فلما كان آخر الليل كان شبيب قد دخل الكوفة، وقصد قصر الإمارة، وضرب بابه بالعمود، فأثّرت ضربته

بالباب، وتجوّل في طرق الكوفة، وقتل رجالاً من أشرافها، وكان مع شبيب زوجته غزالة[1]، وكانت معروفةً بالشجاعة، فدخلت مسجد الكوفة، وجلست على منبره، وجعلت تذمّ بني مروان.

ونادى الحجاج في الناس: يا خيل الله اركبي، فخرج شبيب من الكوفة إلى مجال الطعن والضرب، فجهّز الحجاج في أثره ستة آلاف مقاتلٍ، فساروا وراءه، فكان شبيب يكرّ عليهم فيقتل جماعةً منهم حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً، كان بينهم عدد من الأمراء، ومنهم زائدة بن قدامة الثقفي، وهو ابن عمّ المختار بن أبي عبيد، فوجه الحجاج مكانه عبد الرحمن بن الأشعث، فلم يقابل شبيباً ورجع، فوجّه مكانه عثمان بن قطن الحارثي فالتقى مع شبيب في معركةٍ جرت في

---

(١) غزالة: ولدت بالموصل، وخرجت مع زوجها، فكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال، وأشهر أخبارها فرار الحجاج منها في إحدى الوقائع، أو تحصّنه منها حين أرادت دخول الكوفة، قال عمران بن حطان:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

قتلها خالد بن عتّاب الرياحي في معركةٍ على أبواب الكوفة قبل غرق زوجها.

أواخر سنة ستٍ وسبعين قتل فيها عثمان بن قطن وستمائةٍ مع أصحابه. واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك والحجاج وسائر الأمراء، وخاف منه عبد الملك خوفاً شديداً، فبعث له جيشاً من أهل الشام.

أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة، وكانوا أربعين ألفاً، وأُضيف إليهم عشرة آلاف فصاروا خمسين ألفاً، وأمّر عليهم عتّاب بن ورقاء، وأمره أن يقصد لشبيب أين كان. واجتمع حول شبيب ألف رجلٍ، فحمل بهم على أصحاب عتّاب فانتصر عليهم، وقُتل عتّاب، وفرّ من كان معه، وحاز شبيب على ما في معسكر أهل الكوفة، واستدعى أخاه مصاد بن يزيد من المدائن، وقصد الكوفة. وكان قد وصل إلى الحجاج الجيش الشامي فخرج الحجاج بنفسه على رأس الشاميين للقاء شبيب ومن معه. والتقى الفريقان، وصبر كل منهما للآخر، ثم إن خالد بن عتّاب استأذن الحجاج في أن يركب في جماعةٍ فيأتي الخوارج من الخلف، فأذن له ففعل، وقتل مصاداً أخا شبيب، وغزالةَ زوجة شبيب، وانصرف شبيب ومن بقي معه، فبعث الحجاج في طلبه، فلم يتمكّن الطلب منه فعادوا.

دخل الحجاج الكوفة، وقصدها من بعده شبيب،

فأخرج له الحجاج سريةً من ألف فارسٍ بإمرة الحارث بن معاوية الثقفي، والتقى الطرفان في معركةٍ استمرت من يوم الأربعاء حتى يوم الجمعة، ثم حمل شبيب على الحارث فهزمه، وولّى أصحاب الحارث هاربين، ودخلوا الكوفة، خرج إلى شبيب مولى الحجاج أبو الورد فقُتل، وكذا كان مصير سريةٍ أخرى. وسار شبيب نحو السواد لا يصمد له أحد، ولا يعترضه أحد إلا قتله.

كتب الحجاج إلى زوج ابنته الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، وهو نائبه على البصرة يأمره أن يجهّز جيشاً من أربعة آلاف في طلب شبيب، وأن يكونوا تبعاً لسفيان بن الأبرد قائد الشاميين، فلما اجتمع البصريون والشاميون ساروا وراء شبيب حتى أدركوه، واصطف الفريقان وجرت بينهما معركة حامية، فانهزم الخوارج، واضطروا إلى التوجه إلى جسرٍ هناك فصمدوا ثانيةً ورجعوا إلى القتال، ولم يبق مع شبيب سوى مائةٍ من أصحابه. وفي الصباح وبينما كان شبيب على الجسر ممتطياً جواده نزا الحصان على فرس أنثى أمامه فوقع شبيب وغرق في النهر، وتفرّق أصحابه في البلدان. وقتلت أم شبيب في هذه المعركة وتُدعى جُهيرة، وكانت

جاريةً جميلةً شديدة البأس تقاتل قتال الأبطال.

قُبض على رجلٍ من أصحاب شبيب فحُمل إلى عبد الملك بن مروان، فقال له: أنت القائل:

فإن يك منكم كان مروان وابنه

وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنّا حصين والبَطين وقَعنب

ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيب أي يا أمير المؤمنين. فأعجبه اعتذاره وأطلقه.

وضعف أمر الخوارج بعد شبيب، إذ كان الأزارقة قد اختلفوا فيما بينهم بـ (كرمان) التي كانت بحوزتهم، فسار قطري بن الفجاءة[1] نحو طبرستان فسار لحربه سفيان بن الأبرد الكلبي بجيش من الشاميين، فانتصر سفيان، وقتل قطري، وقيل: عثر به الفرس.

---

(١) قطري بن الفجاءة: جعونة بن مازن التميمي، أبو نعامة، رأس الخوارج من الأزارقة، خرج أيام عبد الله بن الزبير، وهزم الجيوش، واستفحل بلاؤه، وغلب على بلاد فارس، كان شاعراً، وخطيباً بليغاً. اسم فرسه نعامة، ففي الحرب يدعى أبا نعامة، وفي السلم أبا محمد، قتل سنة ثمان وسبعين.

٦ ـ **خراسان**: إقليم كان يتبع البصرة لكن كانت له أهمية، وأصبح ولايةً، ثم أكثر من ولايةٍ، وإن كان يُعيّن أميرها من والي العراق، وربما بأمرٍ من الخليفة لكن لهذا الإقليم شأنه، وهذا ما جعلنا نعدّه بين الأمصار.

قلنا: إن الخليفة عبد الملك قد عزل بكير بن وشاح التميمي عن خراسان، وأعطى إمرتها لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد القرشي عسى أن يجتمع عليه الناس، إذ كادت أن تقع فتنة بعد قتل عبد الله بن خازم واستلام بكير بن وشاح إمرة خراسان. ولما عُزل، وجاء أمية بن عبد الله، ولم تمض مدة حتى ثار بكير بن وشاح وقتل أمية بن عبد الله، وأخذ الإمرة، غير أن عبد الملك بن أمية ثأر لأبيه وتولى أمر خراسان.

بعد أن انتهى الحجاج من أمر شبيب، وانتهى المهلب من قطريّ بن الفجاءة أضاف عبد الملك إلى الحجّاج خراسان، فاستخلف عليها عبيد الله بن أبي بكرة[1]، وأعطى المهلب بن أبي صفرة إمرة سجستان

---

(١) عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي: من أبناء الصحابة، ولد سنة أربع عشرة، وكان جواداً شجاعاً، ولي إمرة سجستان، وبها توفي سنة تسع وسبعين.

التي وجدت حديثاً. لكن لم يلبث الحجاج أن بدّل الأمراء فأعطى المهلّب خراسان، وأعطى عبيد الله بن أبي بكرة سجستان.

وعندما توفّي عبيد الله بن أبي بكرة عام ٧٩ بعد قتاله الترك، ولي أمر سجستان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. وتوفي المهلب بن أبي صفرة سنة اثنتين وثمانين فخلفه على خراسان ابنه يزيد بن المهلّب[١]،

---

(١) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، أبو خالد الأزدي: ولد سنة ثلاث وخمسين في أيام معاوية بن أبي سفيان، ولي المشرق بعد أبيه، ولكن الحجاج عزله وعذبه، ثم اعتقله، فهرب من السجن ثم عاد سليمان بن عبد الملك فولاه العراق وخراسان، قال: فودعني عمر بن عبد العزيز، وقال: يا يزيد اتق الله فإني وضعت الوليد في لحده فإذا هو يرتكض في أكفانه.
سار يزيد إلى خراسان ثم ردّ منها سنة تسع وتسعين فعزله عمر بن عبد العزيز، وولّى مكانه عدي بن أرطاة، فدخل ليسلم على عدي، فقبض عليه، وجهّزه إلى عمر، فسجنه حتى مات عمر.
ولما استخلف يزيد بن عبد الملك غلب يزيد بن المهلب على البصرة، فسار لحربه مسلمة بن عبد الملك فالتقوا فقتل يزيد بن المهلب في صفر سنة اثنتين ومائة.
وكان جواداً، ويضرب به المثل بالجود، أنشده زياد الأعجم:

وما مات المهلب مذ رأينا ... على أعواد منبره يزيدا
له كفّان كفّ ندى وجود ... وأخرى تمطر العلق الحديدا

وكانت أخته زوجةً للحجاج.

وفي سنة خمسٍ وثمانين خلف يزيد على خراسان أخوه الفضل بن المهلب. وفي سنة ستٍ وثمانين تولّى أمر خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي(١).

وقد تعب المسلمون بقتال رُتبيل ملك الترك، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعلمه بأخبار القتال، ويستشيره في بعث جيشٍ كثيفٍ إلى رُتبيل ليؤدّبه، فوافق عبد الملك فجهّز الحجّاج جيشاً قوامه أربعين ألفاً من البصرة والكوفة، وأمّر على الجميع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

---

(١) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة الباهلي، أبو حفص: أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم، والدهاء، والرأي، وقد فتح خوارزم، وبخارى، وسمرقند، وكانوا قد نقضوا العهد وارتدوا، ثم افتتح فرغانة وما جاورها من بلاد الترك وذلك سنة خمس وتسعين.
كان أبوه الأمير أبو صالح كبير الشأن عند يزيد بن معاوية، وقد قتل مع مصعب بن الزبير، ولد قتيبة سنة تسع وأربعين، وولي الري لعبد الملك بن مروان، ثم خراسان في أيام الوليد بن عبد الملك.
ولما مات الوليد بن عبد الملك وخلفه أخوه سليمان نزع قتيبة الطاعة، فاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم، وهو وكيع بن حسّان، وألبّ عليه، ثم شدّ عليه في عشرةٍ من فرسان تميم فقتلوه في شهر ذي الحجة سنة ست وتسعين. وبذا يكون قد عاش سبعاً وأربعين سنةً.

سار عبد الرحمن بالجيش نحو أرض رتبيل، فلما بلغ رتبيل ذلك كتب إلى ابن الأشعث يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية، وأنه كان لذلك كارهاً، وأن المسلمين هم الذين ألجؤوه إلى قتالهم، وطلب من ابن الأشعث أن يصالحه، وأن يبذل للمسلمين الخراج، غير أن ابن الأشعث لم يجبه، وصمّم على دخول بلاده، فجمع رتبيل جنوده واستعدّ لحربه. وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينةً أو أخذ قلعةً من بلاد رتبيل استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له، فاستحوذ على بلادٍ ومدنٍ كثيرةٍ من بلاد رتبيل، وغنم أموالاً جزيلةً، وسبى خلقاً كثيراً، ثم حبس الناس عن التوغّل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد، ويجنوا ما فيها من الحاصلات، ثم يتقدّمون في العام المقبل إلى أعدائهم، فلا يزالون يحوزون الأراضي والأقاليم حتى يحاصروا رتبيل وجنوده في قاعدتهم. وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما تمّ من الفتح، وبالرأي الذي يريد أن يسير عليه.

وجّه الحجاج هميان بن عدي الدوسي إلى كرمان ليجهّز أهلها، وليمدّ عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك، فعصي هميان ومن معه على الحجاج، فوجّه

الحجاج إليه ابن الأشعث فهزمه، وأقام ابن الأشعث بمن معه، ومات عبيد الله بن أبي بكرة، فكتب الحجاج إلى ابن الأشعث بإمرة سجستان مكان ابن أبي بكرة.

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث:

لم يكن الحجاج وابن الأشعث على محبةٍ فيما بينهما. وقد رأى ابن الأشعث أن يقيم بأصحابه حتى يتقووا إلى العام المقبل، فكتب إلى الحجاج بذلك. فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك، ويستضعف عقله، ويُقرّعه بالجبن والنكول عن الحرب، ويأمره حتماً بدخول بلاد رتبيل، ثم أردف ذلك بكتابٍ ثانٍ، ثم ثالثٍ مع البريد. وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث، ويتكلّم فيه وبأبيه وجدّه.

ولما ترادفت كتب الحجاج إلى ابن الأشعث غضب وقال: يكتب إليّ بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي، ولا من بعض خدمي لِخَوَرِهِ وضعف قوته؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزالة ـ يعني أن غزالة زوجة الخارجي شبيب بن يزيد حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها، وهي امرأة، لما دخلت الكوفة ـ ثم إن ابن الأشعث جمع

رؤوس أهل العراق، وقال لهم: إن الحجاج قد ألحّ عليكم في الإيغال في بلاد العدو، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد، فانظروا في أمركم، أما أنا فلست مطيعه، ولا أنقض رأياً رأيته بالأمس، ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأى من الرأي له ولهم، وطلب في ذلك من إصلاح البلاد التي فتحوها، وأن يقيموا بها حتى يتقووا بغلاتها وأموالها، ويخرج عنهم فصل البرد، ثم يسيرون في بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحصروا رُتبيل ملك الترك في (مدينة العظماء).

ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعاجلة رُتبيل، فثار إليه الناس، وقالوا: لا ـ بل نأبى على عدوّ الله الحجاج، ولا نسمع ولا نطيع.

وقال مطرّف بن عامر بن وائلة الكناني: إن أباه كان أول من تكلم في ذلك، وكان شاعراً وخطيباً، وكان مما قال: إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا ـ كما قال الأول لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك ـ أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادةً في سلطانه، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء. ثم قال: اخلعوا عدوّ الله الحجاج ـ ولم يذكر خلع عبد الملك ـ

وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعث، فإني أشهدكم أني أول خالعٍ للحجاج. فقال الناس من كل جانبٍ: خلعنا عدوّ اللهً، ووثبوا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان.

بعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً. ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إلى الحجاج ليُقاتله ويأخذ منه العراق، فلما توسطوا الطريق قالوا: إنَّ خلعنا للحجاج خلعٌ لابن مروان، فخلعوهما وجدّدوا البيعة لابن الأشعث، فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله، وخلع أئمة الضلالة، وجهاد الملحدين. فإذا قالوا: نعم بايعهم.

فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك، ويستعجله في بعثه الجنود إليه. وجاء الحجاج حتى نزل البصرة، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث، وكتب إليه يدعوه إلى ذلك فأبى عليه، وبعث بكتابه إلى الحجاج. وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له: إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركابٍ طويلٍ، أبقِ على أمة

محمدٍ ﷺ، انظر إلى نفسك فلا تُهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تُفرّقها، والبيعة فلا تنكثها، فإن قلت أخاف الناس على نفسي، فالله أحق أن تخافه من الناس، فلا تُعرضها لله في سفك الدماء، أو استحلال محرم، والسلام عليك.

وكتب المهلب إلى الحجاج: أما بعد، فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علو، ليس شيء يردّه حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شِرّةً في أول مخرجهم، وصبابةً إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردّهم حتى يصلوا إلى أهليهم، وينبسطوا إلى نسائهم، ويشمّوا أولادهم. ثم واقفهم عندها فإن الله ناصرك عليهم ـ إن شاء الله ـ. فلما قرأ الحجاج كتابه، قال: فعل الله به وفعل، لا والله ما لي نظر، ولكن لابن عمه نصح. ولما وصل البريد بكتاب الحجاج إلى عبد الملك، نظر فيه ثم نزل عن سريره، وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه كتاب الحجاج، فقال: يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان فاخفه، وإن كان من قبل سجستان فلا تخفه. ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصرة الحجاج، وتجهيزه في الخروج إلى ابن الأشعث،

وعصى رأي المهلب فيما أشار به عليه، وكان في شوره النصح والصدق، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساءً، أين نزل، ومن أين ارتحل، وأي الناس إليه أسرع. وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانبٍ، حتى قيل: إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارسٍ، ومائة وعشرون ألف راجلٍ.

وخرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث فنزل (تُسْتَر)، وقدّم بين يديه مطهر بن حر العكّيّ أميراً على المقدمة، ومعه عبد الله بن رميثة أميراً آخر، فانتهوا إلى دجيل فإذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارسٍ عليها عبد الله بن أبان الحارثي، فالتقوا في يوم الأضحى على نهر دجيل، فهُزمت مقدمة الحجاج، وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائةٍ، واحتازوا ما في معسكرهم من خيولٍ وقماشٍ وأموالٍ، وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة أصحابه، وأخذه ما دبّ ودرج. وقد كان قائماً يخطب، فقال: أيها الناس، ارجعوا إلى البصرة، فإنه أرفق بالجند. فرجع الناس وتبعتهم خيول ابن الأشعث، لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه ولا فاذاً إلا أهلكوه،

ومضى الحجاج هارباً لا يلوي على شيءٍ، حتى أتى الزاوية فعسكر عندها، وجعل يقول: لله درّ المهلب، أي صاحب حربٍ هو، قد أشار علينا بالرأي ولكنا لم نقبل.

وأنفق الحجاج على جيشه ـ وهو بهذا المكان الكثير، وخندق حول جيشه خندقاً، وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة، واجتمعوا بأهليهم، وشمّوا أولادهم، ودخل ابن الأشعث البصرة، فخطب الناس واجتمع بهم، وبايعهم، وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف، وقال لهم ابن الأشعث: ليس الحجاج بشيءٍ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك فلنقاتله، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء، والقرّاء، والشيوخ، والشباب. ثم أمر ابن الأشعث بخندقٍ حول البصرة، فعُمل ذلك.

معركة الزاوية:

وكانت في أواخر شهر المحرم من سنة ثنتين وثمانين بين ابن الأشعث والحجاج، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام، ثم تواقفوا يوماً آخر، فحمل سفيان بن الأبرد أحد أمراء أهل الشام على ميمنة

ابن الأشعث فهزمها، وقتل خلقاً كثيراً من القراء من أصحاب ابن الأشعث في هذا اليوم، وخرّ الحجاج لله ساجداً بعدما كان قد جثا على ركبتيه، وسلّ شيئاً من سيفه، وجعل يترحّم على مصعب بن الزبير، ويقول: ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل، ولما فرّ أصحاب ابن الأشعث رجع ابن الأشعث بمن بقي معه وتبعه من أهل البصرة، فسار حتى دخل الكوفة، فعمد أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة فبايعوه، فقاتل الحجاج خمس ليالٍ أشدّ القتال، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث، وتبعه طائفة من أهل البصرة، فاستناب الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، ودخل ابن الأشعث الكوفة، فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان. وتفاقم الأمر، وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك، واشتدت الحال، وتفرّقت الكلمة جداً، وعظم الخطب، واتسع الخرق على الراقع.

ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرةً بعد مرةٍ، فقال القراء ـ وكان عليهم جَبَلة بن زُحر ـ: أيها الناس ما الفرار من أحدٍ بأقبح منكم، فقاتلوا عن دينكم ودنياكم.

وقال سعيد بن جبير[1] نحو ذلك. وقال الشعبي[2]:

---

(١) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله: الإمام الحافظ المقرئ المفسّر. روى عن ابن عباس، وعبد الله بن مُغَفّل، وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن الزبير، والضحاك بن قيس، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري.
قرأ القرآن على ابن عباس. وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء.
كان مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث ذهب سعيد بن جبير إلى مكة فقبض عليه واليها خالد القسري وأرسله إلى الحجاج فقتله بواسط في شعبان سنة خمسٍ وتسعين.

(٢) الشعبي: عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار: قيل من أقيال اليمن، أبو عمرو الهمداني ثم الشعبي، ويقال: هو عامر بن عبد الله، وكانت أمه من سبي جلولاء.
ولد سنة تسع عشرة في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
رأى علي بن أبي طالب، وصلّى خلفه. حدّث عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبي موسى الأشعري، وعدي بن حاتم، وأسامة بن زيد، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، وجابر بن سَمُرة، وابن عمر، وعمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عمرو، وجرير بن عبد الله، وابن عباس، والنعمان بن بشير، وعبد الرحمن بن سَمُرة، وسَمُرة بن جندب، والبراء بن عازب، وزيد بنِ أرقم، وبُريدة بن الحُصيب، والحسن بن علي، وجابر بن عبد الله، والأشعث بن قيس الكندي، وعمرو بن حريث، وأم سلمة، وميمونة، وأسماء بنت عميس، وأنس بن مالك، وعبد الله بن=

قاتلوهم على جورهم، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة، ثم حمل القرّاء ـ وهم العلماء على جيش الحجاج حملةً صادقةً فبرعوا فيهم. ثم رجعوا، فإذا هم بمقدمتهم جَبلة بن زُحر صريعاً، فهدًّهم ذلك، فناداهم جيش الحجاج: يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم. ثم حمل سفيان بن الأبرد، وهو على خيل الحجاج، على ميسرة ابن الأشعث، وعليها الأبرد بن مرة التميمي، فانهزموا ولم يقاتلوا كثير قتالٍ، فأنكر الناس منهم ذلك. وكان أمير ميسرة ابن الأشعث الأبرد شجاعاً لا يفرّ، وظنّوا أنه قد خامر، فنقضت الصفوف، وركب الناس بعضهم بعضاً، وكان ابن الأشعث يحرّض الناس على القتال، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة، فبايعه أهلها.

= الزبير، وأم هانئ.
اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم، وجعله الحجاج عريفاً على قومه، ثم خرج مع ابن الأشعث فلما هُزموا اختفى في بيته تسعة أشهر، ثم خرج مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان فحصل على أمان الحجاج، ووصلوا إلى فرغانة، ثم طلبه الحجاج، فطلب منه قتيبة حيث يشاء، ولكنه أبى، فحُمل إلى الحجاج، غير أن الحجاج قد عفا عنه.
استقضاه عمر بن عبد العزيز. وتوفي الشعبي سنة مائة وخمسٍ.

معركة دير الجماجم:

وكانت في شهر شعبان من سنة ثنتين وثمانين، وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها، وحفّوا به، ولكن فئةً قليلةً حاولت أن تقاتله دون مَطَر بن ناجية ـ نائب الحجاج ـ فلم يستطيعوا ذلك، فعدلوا إلى القصر، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلالم فنصبت على قصر الإمارة، فأخذه واستنزل مطر بن ناجية، وأراد قتله، فقال له: استبقني فإني خير من فرسانك، فحبسه، ثم استدعاه فأطلقه، وبايعه، وتم لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة، وأمر بالمسالح من كل جانبٍ، وحفظت الثغور والطرق والمسالك. ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة في البر حتى مرّ بين القادسية والعذيب، وبعث إليه ابن الأشعث قوّةً بإمرة عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة منعت الحجاج من دخول القادسية، فسار الحجاج حتى نزل دير قُرّة[1]، وجاء ابن الأشعث بمن معه حتى نزل دير الجماجم[2]

---

(١) دير قُرّة: دير بإزاء دير الجماجم.

(٢) دير الجماجم: بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة.

ومعه جنود كثيرة من الكوفة والبصرة، وفيهم القراء. وجاء إلى الحجاج أمداد كثيرة من الشام، وخندق كل من الفريقين على نفسه، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعضٍ في كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً حتى أُصيب عدد كبير من رؤوس الناس، واستمرت هذه الحال مدةً طويلةً. واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان، فقالوا له: إن كان أهل العراق يُرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان، وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنود كثيرة جداً، وكتب معهما كتاباً إلى أهل العراق، يقول لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم، وبعثت إليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلدٍ شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان، وقال في عهده هذا: فإن لم تُجب أهل العراق إلى ذلك، فالحجاج على ما هو عليه، وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره، لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق، من عزله إن رضوا به شقّ عليه ذلك مشقّةً عظيمة جداً، وعَظُم شأن هذا الرأي عنده، وكتب إلى عبد الملك: يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نَزْعي عنهم لا يلبثون قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأةً عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفان؟ فلما سألهم ما تريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه. وإن الحديد بالحديد يُفْلَح، كان الله لك فيما ارتأيت، والسلام عليك.

فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر، فتقدّم عبد الله ومحمد، فنادى عبد الله: يا معشر أهل العراق أنا عبد الله بن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإن يُعرض عليكم كيت وكيت، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال. وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك، فقالوا: ننظر في أمرنا غداً، ونرد عليكم الخبر عشيةً، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً، ونَدَبَهم إلى قبول ما عرض

عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك، وإبقاء الأعطيات، وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج، فنفر الناس من كل جانب، وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عَدداً وعُدداً، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم، وذلّوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً. ثم جدّدوا خلع عبد الملك ونائبه ثانيةً، واتفقوا على ذلك كلهم.

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك، وعمه محمداً الخبر، قالا للحجاج: شأنك بهم إذن، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين، فكانا إذا لقياه سلّما عليه بالإمرة، ويُسلّم هو أيضاً عليهم بالإمرة، وتولّى الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك. فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب، فجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمن بن سُليم، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد، وعلى الرجالة عبد الرحمن بن حبيب الحكمي. وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجاج بن حارثة الجشمي، وعلى الميسرة الأبرد بن قرّة التميمي، وعلى الخيالة عبد الرحمن بن عيّاش بن أبي ربيعة، وعلى الرجالة محمد بن سعد بن أبي وقاص

الزهري[1]، وكان فيهم من العلماء سعيد بن جبير، وعامر بن شراحيل الشعبي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى[2]، وكميل بن زياد[3]. وجعلوا يقتتلون كل يوم، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الأقاليم من علف وطعام، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم في أضيق حالٍ من العيش، وقلةٍ من الطعام، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه، وكانت الدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام، غير أن الحجاج يبقى ثابتاً في مكانه لا يتزحزح عنه، بل إذا حصل له ظفر في يومٍ من الأيام

---

(١) محمد بن سعد بن أبي وقاص: الإمام الثقة، أبو القاسم. حدّث عن أبيه، وعن عثمان بن عفان، وعن أبي الدرداء، أُسر يوم دير الجماجم، وقتله الحجاج.

(٢) عبد الرحمن بن أبي ليلى: الإمام العلامة، الحافظ، أبو عيسى الأنصاري، الكوفي، الفقيه، ويقال: أبو محمد، حدّث عن عمر، وعلي، وأبي ذرّ، وعبد الله بن مسعود، وبلال، وأُبيّ بن كعب، وصهيب، وقيس بن سعد، والمقداد، وأبي أيوب. وفد على معاوية، وخرج على الحجاج، وكان قد جعله على القضاء، ثم عزله وضربه، وكان قد شهد مع عليّ النهروان. قتل يوم دير الجماجم سنة ثلاث وثمانين.

(٣) كميل بن زياد بن نهيك النخعي: ولد سنة اثنتي عشرة في خلافة الصديق، تابعي، ثقة، من أصحاب عليٍّ، كان شريفاً مطاعاً في قومه، شهد صفين مع عليٍّ، سكن الكوفة، وروى الحديث، قتله الحجاج صبراً.

يتقدّم بجيشه نحو عدوه، وكانت له خبرة بالحرب، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء، لأن الناس كانوا لهم تبعاً، وهم الذين يُحرّضونهم على القتال، والناس يقتدون بهم، فصبر القراء لحملة جيشه. ثم جمع الحجاج الرماة من جيشه وحمل بهم، وما توقّف حتى قتل منهم كثيراً، ثم حمل على ابن الأشعث ومن معه من الجيش، فانهزم أصحاب ابن الأشعث، وذهبوا في كل وجهٍ، وهرب ابن الأشعث ومعه عدد قليل من الناس فأتبعهم الحجاج بجيشٍ كثيفٍ مع عمارة بن غنم اللخمي، ومعه محمد بن الحجاج، والإمرة لعمارة، فانطلقوا وراءهم يطاردونهم لعلهم يظفرون بابن الأشعث قتلاً أو أسراً، فما زال فاراً يخترق الأقاليم، وهم في أثره، حتى وصل إلى كرمان. ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه إلى بلاد رُتبيل ملك الترك. فأكرمه رُتبيل، وأنزله عنده، وأمّنه.

وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة، وهو الذي كان يُصلّي بالناس هنالك في بلاد رتبيل. ثم إن جماعةً من فلول أصحاب ابن الأشعث الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه فيكونوا معه ـ وهم قريب من ستين

ألفاً، فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى بلاد رتبيل، فتغلّبوا على سجستان، واستحوزوا على ما فيها من الأموال، وانتشروا في تلك البلاد وأخذوها، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث: أن اخرج إلينا حتى نكون معك ننصرك على من يخالفك، ونأخذ بلاد خراسان، فإن بها جنداً ومنعةً كثيرةً منا، فنكون بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك، فنرى بعد ذلك رأينا، فخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم قليلاً نحو خراسان، فاعتزله جماعة من أهل العراق مع عبيد الله بن سَمُرة، فقام ابن الأشعث فيهم خطيباً، فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب، وقال: لا حاجة لي بكم، وأنا ذاهب إلى صاحبي رُتبيل فأكون عنده. ثم انصرف عنهم، وتبعه طائفة منهم، وبقي معظم الجيش.

فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عيّاش بن أبي ربيعة، وساروا معه إلى خراسان فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، فمنعهم من دخول بلاده، وكتب إلى عبد الرحمن بن عيّاش يقول له: إن في البلاد متسعاً، فاذهب إلى أرضٍ ليس بها سلطان، فإني أكره قتالك، وإن كنت تريد مالاً بعثت إليك، فقال له: إنا لم نجئ لقتال أحدٍ،

وإنما جئنا نستريح، ونريح خيلنا ثم نذهب، وليست بنا حاجة إلى شيءٍ مما عرضت. ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كُوَر خراسان، فخرج إليه يزيد بن المهلب ومعه أخوه المفضّل في جيوش كثيفةٍ، فلما التقوا بهم اقتتلوا، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن عياش، وقتل يزيد منهم مقتلةً كبيرةً، واحتاز ما في معسكرهم، وبعث بالأسارى إلى الحجاج.

ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث، نادى مناديه في الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن، فلحق بقتيبة خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث، فأمنهم الحجاج. ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبّعهم، وقتل منهم كثيراً.

وكان الشعبي عامر بن شراحيل من جملة من سار إلى قتيبة، فذكره الحجاج يوماً، فقيل له: إنه سار إلى قتيبة، فكتب إلى قتيبة: أن ابعث لي بالشعبي، قال الشعبي: فلما دخلت عليه سلمت عليه بالإمرة، ثم قلت: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا

المقام إلا الحق، كائناً في ذلك ما كان، قد والله تمرّدنا عليك، وخرجنا وجهدنا كل الجهد، فما آلونا، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، وقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وما جرّت إليك أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فلك الحجة علينا. فقال الحجاج: أنت والله يا شعبي أحب إلينا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلتُ ولا شهدتُ، قد أمنت عندنا يا شعبي. قال: فانصرفت، فلما مشيت قليلاً، قال: هلمّ يا شعبي، قال: فوجل لذلك قلبي، ثم ذكرت قوله: «قد أمنت عندنا يا شعبي» فاطمأنت نفسي، فقال: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي؟ قال: وكان لي مكرماً قبل الخروج عليه، فقلت: أصلح الله الأمير، قد اكتحلت بعدك السهر، واستوعرت السهل، واستوخمت الجناب، واستحلست الخوف، واستحليت الهمّ، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً، قال: انصرف يا شعبي، فانصرفت[1].

كتب الحجاج إلى رُتبيل ملك الترك الذي لجأ إليه ابن الأشعث يقول له: والله الذي لا إله إلا هو، لئن لم

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

تبعث لي بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتلٍ، ولأخربنّها. فلما تحقّق الوعيد من الحجاج استشار في ذلك بعض الأمراء، فأشاروا عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج دياره، ويأخذ عامة أمصاره، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين، وأن لا يُؤدّي في كل سنةٍ منها إلا مائة ألفِ من الخراج، فأجابه الحجاج إلى ذلك. وقيل: إن الحجاج وعده أن يُطلق له خراج أرضه سبع سنين، فعند ذلك غدر رُتبيل بابن الأشعث؛ فقيل: إنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه، وبعث برأسه إلى الحجاج. وقيل: بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضاً شديداً فقتله وهو بآخر رمقٍ. والمشهور أنه قبض عليه، وعلى ثلاثين من أقربائه فقيّدهم في الأصفاد، وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه، فلما كانوا ببعض الطريق بمكانٍ يقال له (الرجح) صعد ابن الأشعث، وهو مُقيّد بالحديد إلى سطح قصرٍ، ومعه رجل موكل به لئلا يفرّ، وألقى نفسه من ذلك القصر، وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً. فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاجتزه، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج. فأمر فطيف برأسه في العراق، ثم بعثه إلى عبد الملك، فطيف برأسه في الشام، ثم بعث به إلى

أخيه عبد العزيز بمصر، فطيف برأسه هنالك، ثم دفنوا رأسه بمصر، وجثته بالرجح[١].

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة، وليس من قريش، وإنما هو كندي من اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريشٍ، واحتجّ عليهم الصديق بالحديث في ذلك، حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين، فأبى الصديق عليهم ذلك. ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً ثم رجع عنه، كما قررنا ذلك فيما تقدّم. فكيف يعمدون إلى خليفةٍ قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه، وهو من صلبية قريشٍ، ويبايعون لرجلٍ كنديٍ بيعةً لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟ ولهذا لما كانت هذه زلّة وفلتة نشأ بسببها شرّ كبير، هلك فيه خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

وقفة تأمل:

إن شدّة الحجاج وقسوته، وبطشه وسطوته لا

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يستدعي ذلك بيعة رجلٍ أخطأ الحجاج بحقه، وأخطأ هو بتصرّفه، إن بيعة رجلٍ مع وجود خليفةٍ أجمع عليه المسلمون منذ سنين، وبويع دون خلافٍ إن ذلك يستدعي قتال من بويع فيما بعد، بعد أن خلع الطاعة، وفارق الجماعة لقول رسول الله، ﷺ: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)[1] لأن المسلمين إن لم يقاتلوا أحدهما، وهو الآخر لانقسمت الأمة الإسلامية إلى قسمين، وقاتلت بعضها بعضاً، وذهب ريحها، وضعفت قوتها، ولسيطر عليها أعداؤها، وتوقّفت الدعوة، ثم ماتت الأمة.

ونلاحظ في حركة ابن الأشعث أنها قد شغلت الأمة الإسلامية فيها حتى توقّف الجهاد. فجند الشام، والعراق، وخراسان قد شغلوا بها جميعاً، ولو امتدّت أكثر لعمّت الفوضى الأمصار كافةً.

ولقد كان للعاطفة دور كبير إذ أن كراهية الظلم والتعسّف، وكراهية أعمال الحجاج، وتأييد القرّاء يجعل الناس بعواطفهم يقفون إلى جانب ابن الأشعث مخالفين الجانب الشرعي الذي يقضي بمقاتلة مدّعي الخلافة

---

(١) رواه مسلم ١٨٥٣.

الثاني. ويحتجّ العامة بأن القرّاء يعرفون هذا، ونحن من رأيهم، ونسير وراءهم، والجواب بأن القرّاء ليسوا بمعصومين، وقد أخطؤوا لكراهيتهم لأعمال الحجاج، وقد أدركوا هذا بعد فوات الأوان، إذ قُتل بعضهم، وعُفي عن بعضهم، فاعترف بالخطأ من بقي على قيد الحياة، وندم على ما فعل يوم لا ينفع الندم، وقد مرّ معنا قول الشعبي عن ذلك.

ولا يزال عامة الناس يقفون بعواطفهم إلى جانب ابن الأشعث كراهيةً للحجاج. وإذا نظرنا في الأمر ملياً فهل انقسام الدولة الإسلامية ومقاتلة بعضها بعضاً أقل ضرراً أم وجود ظالمٍ في مصرٍ واحدٍ من الأمصار؟.

والظالم يوعظ، وينصح، ثم يُذكّر الخليفة به، ولا تُشقّ عصا الطاعة أبداً، ولا يُقاتل، ولا يُبايع آخر لما في ذلك من خطرٍ.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]. فعهد الظلم يزول، ولكن انقسام الأمة قاتل، وكراهية الظلم لا توقع في المحظور، ولا تجرّ إلى المحرّم مهما تفاقم الأمر.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

الفصل الرابع

الفتوحات في عهد عبد الملك

إن للأمة المسلمة مهمةً في الحياة وهي إبلاغ الدعوة للناس كافةً، والمسلمون مسؤولون عن ذلك أمام الله، والخليفةَ مسؤول عن رعيته، ومناط به إعداد الرعية للجهاد، وقيادتهم أو تكليف أحدٍ للقيام بالمهمة نيابةً عنه.

والجهاد هو مجاهدة الذين يقفون في وجه الدعوة أو يُحاربونها إضافةً إلى الذين يظلمون الناس، وحتى *يُؤدّي المسلمون مهمتهم على الوجه الأكمل على الخليفة* العمل لترسيخ قواعد الإسلام، وتوطيد الأمن في قاعدة المنطلق الأساسي للإسلام، وهي المنطقة التي ظهر فيها وحمله أبناؤها وجاهدوا في سبيل إبلاغه.

وقد خرج المسلمون للفتح منذ أيام

رسول الله، ﷺ، ثم في عهد خلفائه الراشدين من بعده حتى كانت الفتنة في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، حيث توقّفت الفتوحات نتيجة ذلك إلا ما كان من تقدّمٍ قليلٍ وفتحٍ ضئيلٍ في الجبهات وقرب الثغور، وقد شُغِل المسلمون بعضهم ببعضٍ، ولولا خوف الروم من المسلمين لقاموا بهجماتٍ على ديار الإسلام، وقد فكّروا بذلك غير أن أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قد هدّدهم، وكتب لأمبراطورهم عندما تدانى إلى بعض البلاد في جنودٍ عظيمةٍ، وطمع فيها: «والله لئن لم تنتهِ وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنّك من جميع بلادك، ولأُضيقنّ عليك الأرض بما رحبت» وهذا ما يجب أن يكون فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفّ، وبعث يطلب الهدنة.

وما أن كان عام الجماعة، ورجعت الوحدة إلى الأمة حتى عادت الفتوحات من جديدٍ، وانطلقت الدعوة. ولكن ما أن توفي معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، حتى عادت الفرقة ورجع الخلاف. ففي أيام يزيد بن معاوية، وقعت فاجعة كربلاء، ووقعة الحرة بالمدينة، واعتزال عبد الله بن الزبير، رضي الله

عنهما، في مكة، ورفضه بيعة يزيد بن معاوية، ثم حصار ابن الزبير بمكة.

وفي أيام خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، تمرّد مروان بن الحكم في الشام، واستولى عليها، ثم سيطر على مصر، وجاء بعده ابنه عبد الملك فبقي على تمرّده في مصر والشام، ثم امتدّ نفوذه إلى العراق، وأخيراً تغلّب على ابن الزبير الذي قُتل، وبعدها بايعت الأمصار كلها عبد الملك بن مروان، وأجمعت الأمة على بيعته، وغدا خليفةً للمسلمين.

وما أن نهض عبد الملك بن مروان بالخلافة حتى تحرّك الخوارج فشُغلت الدولة بهم مدةً من الزمن حيث سيّرت إليهم الجيوش، وخافتهم الرعية في العراق، والأهواز، وفارس، والبحرين وبعض الجهات الأخرى، واتجهت نحوهم جنود هذه المناطق مع ما تحرّك إليهم من الشام، وإضافةً إلى قتال المسلمين بعضهم لبعضٍ فقد تعطّلت الزراعة والتجارة في المناطق التي جرت عليها فتن الخوارج ووقائعهم، هذا مع الخوف والهلع الذي يُصيب نفوس الناس من جرائم أولئك المارقين.

وما أن هدأت أحداث الخوارج حتى قامت حركة ابن الأشعث التي فاقت ما سبقها إذ أعلنت مفارقة

الجماعة، وخلع الطاعة، ومبايعة آخر، وأيّدها وسار معها سادة الناس من القرّاء والعلماء، وهنا كانت الطامة إذ اختلط الأمر على العامة، وابتعد عن الصواب من لم يرجع إلى الشرع دون النظر إلى الرجال إذ لا يعرف الحق بالرجال بل يعرف الرجال بالحق. ولذا توقّفت الفتوحات، كما توقّفت الدعوة، وحاول الروم التقدّم أحياناً وكذا غيرهم من أصحاب السلطان وأتباع الدنيا.

ولكن رغم هذا كله لم تكن لتترك الثغور دون حمايةٍ للردع فيما إذا ما فكّر العدوّ بالنيل من المسلمين، كما لم تكن الجبهات لتترك دون جيوشٍ لإرهاب العدوّ، والتقدّم في أرضه فيما إذا سنحت الظروف أو سمحت القوة، وهذا ما كان يحدث لذا نستطيع أن نسمي ما تمّ من فتحٍ أيام عبد الملك أو تقدّمٍ وإضافة أرضٍ جديدةٍ إلى ديار الإسلام على نطاقٍ ضيقٍ نسميها فتوحاتٍ محليةً إذ تمّت على أيدي جيوش الجبهات وحماة الثغور، ولم يشارك فيها مجاهدو الأمة وجنود الخلافة، وقد حدث هذا على الجبهات الثلاث: الجبهة الشمالية التي يُعدّ الروم عماد الخصم، ومعهم الأرمن، والصقالبة والخزر. . وتضمّ هذه الجبهة الجزيرة الفراتية وثغور الأناضول. والجبهة الشرقية وعماد خصومتها الترك ومن

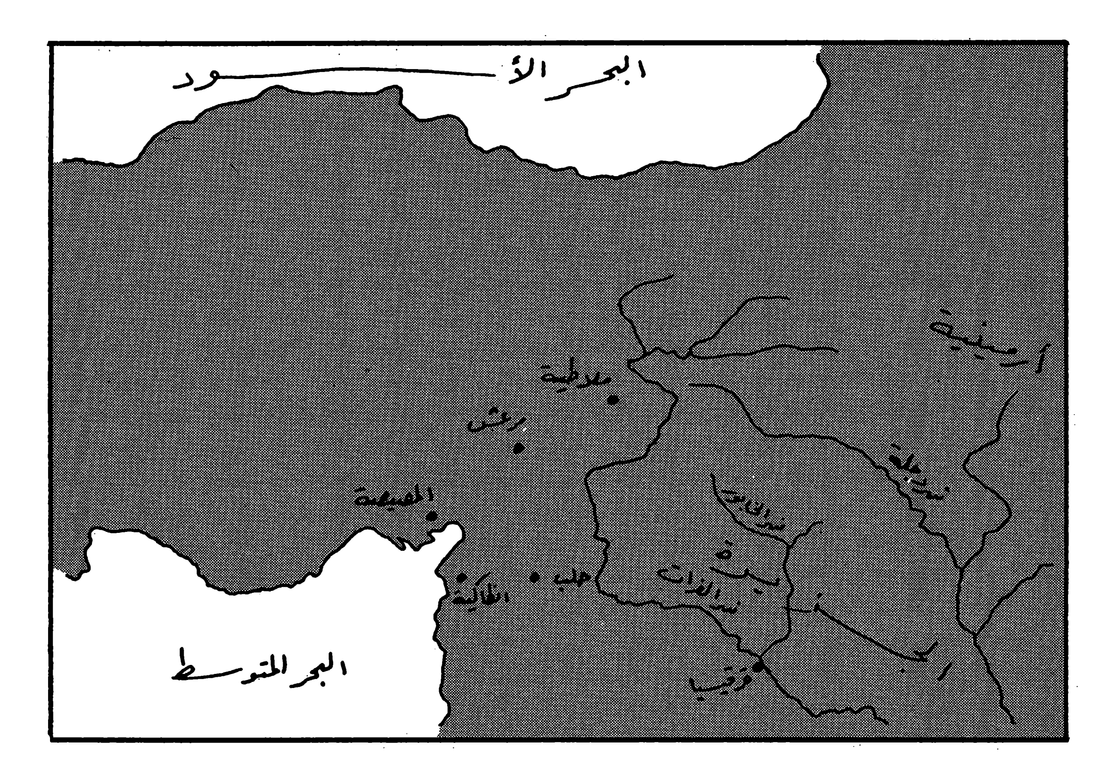
معهم، وتضمّ الجبهة ولايات خراسان، وسجستان و. . .
والجبهة الغربية وعماد عداوتها البربر، ومن يدعمهم من الروم وبعض الوثنيات الإفريقية.

الجبهة الشمالية:

لم يحدث تغيير يذكر على هذه الجبهة، وكانت الثغور تحصّن باستمرار، وتتوالى عليها الصوائف والشواتي، ولا يكاد الغزو ينقطع لإثبات القوة أمام الروم ولإظهار عدم تأثير الأحداث الداخلية على المواقع في الجبهة، وعلى خط سير الجهاد، وكان محمد بن مروان بن الحكم شقيق الخليفة أميراً للجزيرة، وهو الذي يتولّى الغزو في أغلب الأحيان.

غزا محمد بن مروان الروم سنة ثلاثٍ وسبعين، وهزمهم في العام نفسه عثمان بن الوليد في جهات أرمينية، وقد كان عثمان في أربعة آلافٍ على حين كان الروم ستين ألفاً.

وخرج الروم سنة خمسٍ وسبعين من جهات مرعش متجهين نحو بلاد الشام فوقف في وجههم محمد بن مروان، وصدّهم، وانتصر عليهم.



الجبهة الشمالية

وغزا المسلمون الروم سنة ثمانٍ وسبعين وفتحوا أرقيلية، وفي طريق العودة أصابهم مطر غزير، فأصيب بسببه أناس كثيرون.

وانتشر مرض الطاعون في الشام سنة تسعٍ وسبعين فتوقّف غزو أهل الشام ذلك العام، فظنّ الرومُ أن هناك مانعاً سياسياً خطيراً حال دون غزو المسلمين، فتقدّموا نحوهم يريدون استغلال الفرصة، ووصلوا إلى جهات أنطاكية غير أن المسلمين نفروا للجهاد، وأجبروا الروم إلى العودة من حيث أتوا.

وتقدّم عبد الله بن عبد الملك بن مروان في بلاد الروم على رأس صائفةٍ سنة أربعٍ وثمانين واستطاع أن يدخل بلدة المصيصة.

وغزا عطاء بن رافع جزيرة صقلية سنة أربع وثمانين. كما غزا محمد بن مروان أرمينية.

وتقدم مسلمة بن عبد الملك لغزو الروم، ودخل ديارهم سنة ستٍ وثمانين.

الجبهة الشرقية:

يعيش على حدود بلاد المسلمين الشرقية قبائل يعود أكثرها إلى أصولٍ تركيةٍ، ويمكن تمييز ثلاث جبهات على هذه الجبهة:

أ ـ بلاد ما وراء النهر: وهي ما وراء نهر جيحون وتقع في الجزء الشمال الشرقي من هذه المنطقة، وتخضع لإماراتٍ كثيرةٍ، إذ أن أكثر سكانها يعيشون في واحاتٍ يديرها أمراء، وتنتقل فيما عداها قبائل رعوية تخضع لأمراء المناطق التي تعيش في جوارها. وقد كان المسلمون يغزون تلك الجهات ثم يعودون إلى خلف النهر.

غزا أمية بن عبد الله بلاد ما وراء النهر، ولكنه حوصر هو وجنوده، وأصابهم الجهد، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك، وعادوا إلى مرو وذلك عام سبعٍ وسبعين.

وغزا المهلب بن أبي صفرة المنطقة سنة ثمانٍ وسبعين، ونزل مدينة (كِش).

وغزا المنطقة حبيب بن المهلب أمير مدينة بخارى سنة ثمانين.

ودخل المهلب بلاد ما وراء النهر سنة إحدى وثمانين وفُقئت عينه في هذه الغزوة.

واحتل يزيد بن المهلب قلعة (نيزك) بـ(باذغيس) سنة أربعٍ وثمانين.

وفتح المفضّل بن المهلب باذغيس وشومان سنة ستٍ وثمانين.

ب ـ شرق سجستان: وتعيش هناك قبائل تركية أيضاً، وقد اشتهر ملك الترك رتبيل أيام عبد الملك بن مروان.

غزا أمير سجستان عبيد الله بن أبي بكرة رُتبيل ملك الترك، وقد كان يصانع المسلمين تارةً، ويتمرّد أخرى، فكتب الحجاج إلى ابن أبي بكرة أن ناجزه بمن معك من المسلمين حتى تستبيح أرضه، وتهدم قلاعه، وتقتل مقاتلته، فخرج عبيد الله بن أبي بكرة في جمعٍ من الجنود من بلاده، وحشودٍ من أهل الكوفة والبصرة، ثم التقى مع رُتبيل ملك الترك فكسره، وهدم أركانه بسطوةٍ بتّارةٍ، وجاس ابن أبي بكرة وجنده خلال ديارهم، واستحوذ على كثيرٍ من أقاليمه، ومدنه، وأمصاره، وتبّر ما هنالك تتبيراً، ثم إن رُتبيل تقهقر أمامه، وما زال يتبعه حتى اقترب من قاعدته، حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب، وضيّقوا عليهم المسالك، حتى ظنّ كل من المسلمين أنه لا محالة هالك فعند ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل على أن يأخذ

منه سبعمائة ألف، ويفتحوا للمسلمين طريقاً يخرجون عنه ويرجعون عنهم إلى بلادهم، فانتدب شُرَيح بن هانئ[1]، فندب الناس إلى القتال والمصابرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال، فنهاه عبيد الله بن أبي بكرة فلم ينته، وأجابه جماعة من الناس الشجعان وأهل الحفاظ، فما زال يقاتل حتى أفنى أكثر المسلمين الذين معه، وجعل شُرَيح بن هانئ يقاتل، ويرتجز قائلاً:

أصبحتُ ذا بثٍّ أقاسي الكِبَرا
قد عشت بين المشركين أَعْصُرا
ثمّتَ أدركتُ النبيّ المنذرا
وبعده صديقه وعمرا
ويوم مِهران ويوم تُسْتَرا
والجمع في صِفِّينهم والنهرا

---

(١) شريح بن هانئ بن يزيد الحارثي المذحجي: أبو المقدام، الفقيه، صاحب علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، كان من أمرائه يوم الجمل.
بعث عليّ أبا موسى الأشعري في أربعمائة عليهم شريح بن هانئ، ومعهم ابن عباسٍ يصلي بهم، إلى دومة الجندل، يوم التحكيم.
حدّث عن أبيه، وعمر، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وعائشة.
وفد على معاوية شافعاً في كثير بن شهاب فأطلقه له.

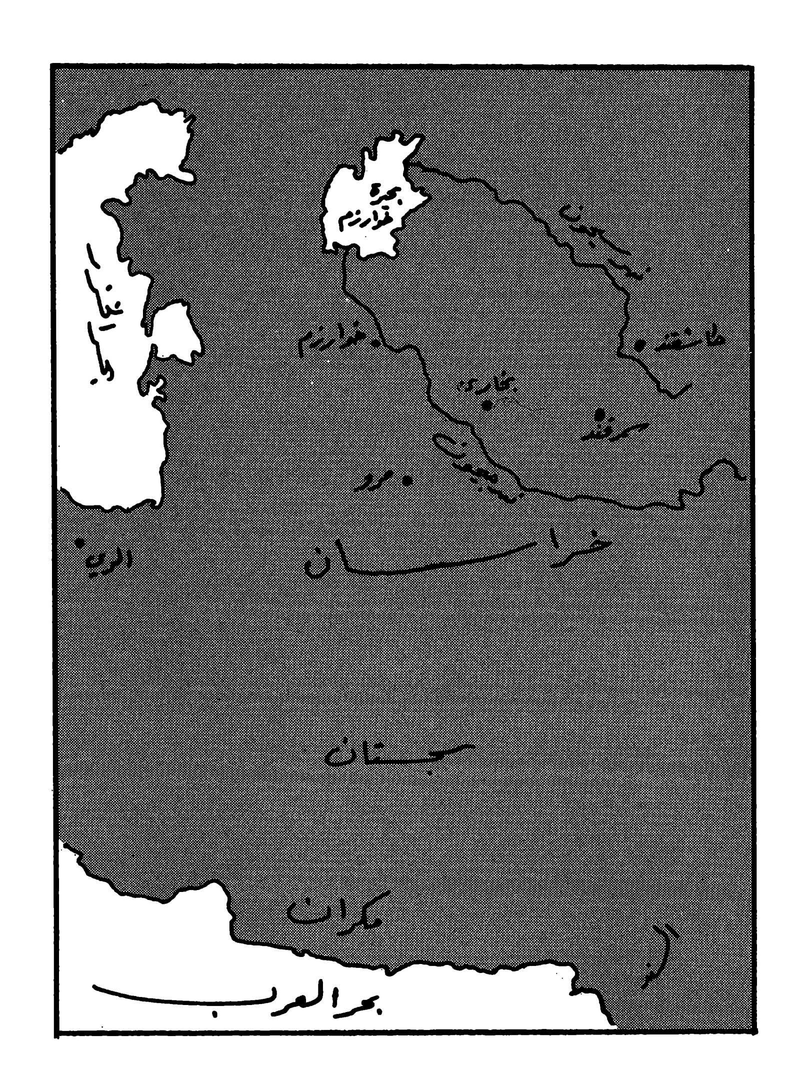
ويا جميرات مع المُشقّرا
هيهات ما أطول هذا عُمُرا

وظلّ يقاتل حتى قُتل، ثم خرج من خرج من الناس بصحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رُتبيل، وهم قليل. وبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويستشيره في بعث جيشٍ كثيفٍ إلى بلاد رُتبيل لينتقموا منه بسبب ما حلّ بالمسلمين في بلاده. فحين وصل البريد إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بالموافقة على ذلك، وأن يُعجّل ذلك سريعاً، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش، فجهّز جيشاً كثيفاً قوامه أربعين ألفاً من الكوفة والبصرة وأمّر على الجميع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

فلما بلغ رُتبيل مجيء ابن الأشعث بالجنود إليه، كتب إليه يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية، وأنه كان لذلك كارهاً، وأن المسلمين هم الذين ألجؤوه إلى قتالهم، وسأل ابن الأشعث أن يصالحه، وأن يبذل للمسلمين الخراج، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك، وصمم على دخول بلاده، وجمع رُتبيل جنوده وتهيّأ له ولحربه، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينة، أو أخذ قلعةً استعمل عليها نائباً من

جهته يحفظها له، فاستحوذ على بلادٍ ومدنٍ كثيرةٍ من بلاد رُتبيل، وغنم أموالاً جزيلةً، وسبى خلقاً كثيراً، ثم حبس الناس من التوغّل في بلاد رتبيل حتى يُصلحوا ما بأيديهم من البلاد، ويتقوا بما فيها من الغلال والحاصلات، ثم يتقدمون في العام المقبل إلى أعدائهم فلا يزالون يحوزون الأراضي والأقاليم حتى يحاصروا رُتبيل وجنوده في قاعدتهم المليئة بالكنوز والأموال والذراري حتى يغنموها، ثم يقتلون مقاتلتهم، ويسبون الذراري، وعزموا على ذلك، وكتب إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح، وما صنع الله لهم وبهذا الرأي الذي رآه لهم. فخالفه الحجاج واستهجن رأيه، ووقع الخلاف بين الطرفين.

ومات عبيد الله بن أبي بكرة فكتب الحجاج إلى ابن الأشعث بإمرة سجستان رغم ما بينهما من خلافٍ، ولما اشتدّ الخلاف خلع ابن الأشعث الحجاج، وبعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفر بالحجاج فلا خراج على رُتبيل أبداً، وذلك ليضمن ابن الأشعث ظهره. ثم إن ابن الأشعث سار بالجنود من سجستان نحو الحجاج بدلاً من أن يسير إلى رُتبيل، وبدأت الفتنة.



الجبهة الشرقية

ج ـ **السند**: وهي المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من بلاد المسلمين، وتبدأ فيها الحياة الزراعية بالظهور بسبب وجود نهر السند، كما يكثر السكان بسبب الحياة المستقرة نتيجة توفّر المياه وخصوبة التربة، واشتهر من حكام تلك المنطقة الملك داهر الذي قاتله المسلمون، وسبق للمسلمين أن أغاروا على تلك الجهات منذ أيام الخلفاء الراشدين. كما سار إليها المهلب بن أبي صفرة سنة أربع وأربعين أيام معاوية بن أبي سفيان، ونال شيئاً من النجاح.

أرسل عبد الملك بن مروان عاملاً له على ثغر السند هو سعيد بن أسلم بن زرعة، ولكنه قُتل والتجأ قاتلاه إلى داهر ملك السند.

بعث الحجاج والي المشرق مجاعة بن سعر التميمي فغلب على الثغر، وفتح بعض المناطق، ووافاه الأجل قبل مرور عام. وفي هذه الأثناء اختطف القراصنة بعض النساء المسلمات، فطلب الحجاج من ملك السند داهر تسليم هذه النساء، فأجاب: أن يده لا تصل إلى القراصنة فأرسل إليه الحجاج بعض المقاتلين كان على رأسهم عبيد الله بن نبهان فقتل. فأرسل بُديل بن طهفة البجلي ولكن الأجل وافاه، ثم أرسل بعدئذٍ محمد بن القاسم الثقفي على رأس جيشٍ كبيرٍ.

الجبهة الغربية:

اضطربت أمور إفريقية بعد مقتل زهير بن قيس البلوي سنة ستٍ وسبعين، فأمر الخليفة عبد الملك بن مروان أن يسير إلى إفريقية والياً عليها حسّان بن النعمان، فسار من مصر بأربعين ألفاً من جند الشام، فنزل طرابلس، وارتحل منها إلى القيروان، فلم يجد أثناء سيره سوى مقاومةٍ خفيفةٍ، فسار إلى (قرطاجنة)، فأمر بهدمها فهُدِّمت حتى يحرم الروم من الإفادة من مرافئها، ثم أقام إلى الجنوب منها مدينة تونس، ولاحق الروم إلى الساحل فهزمهم في (بنزرت) و(صطفورة) ثم عاد إلى القيروان، فمكث فيها مدة، ثم انطلق نحو الملكة (دهينا) الكاهنة البربرية في جبال أوراس، وكان البربر يطيعونها، وأمرها عظيم يخشاه الروم، والتقى الطرفان فهُزم المسلمون بعد بلاءٍ عظيم، وأخبر حسان الخليفة عبد الملك بذلك فأمره بالانتظار حتى تصل إليه الأوامر. أما من ناحية الروم فقد فرحوا بهزيمة المسلمين، وحرصوا على استرجاع إفريقية.

وصل أسطول الروم سنة ثمان وسبعين إلى مكان قرطاجنة بإمرة البطريق يوحنا فتمكّن من النزول هناك، ، وقسا الروم على المسلمين قسوةً شديدةً تدلّ على

حقدهم ومحاولة الانتقام، وتحصّنوا في أطلال قرطاجنة والمدن المجاورة لها، وأخبر حسّان أمير المؤمنين عبد الملك بقسوة الروم.

بقي حسان مقيماً في مكان (قصور حسان) بالقرب من (سرتة) مدة ثلاث سنوات، وهو يستحث عبد الملك لإرسال الجنود إليه إلا أن الخليفة كان مشغولاً بحركة الخوارج، ومن بعدها حركة ابن الأشعث.

أرسل عبد الملك نجدةً إلى حسان سنة إحدى وثمانين، وأمره بالسير نحو إفريقية، فتحرّك حسان نحو الكاهنة فهزمها وقتلها سنة اثنتين وثمانين، وأحسن إلى البربر فحسُن إسلامهم.

عاد حسان إلى القيروان فاستراح بها مدةً، ثم اتجه شمالاً نحو (قرطاجنة) لمنازلة الروم فانتصر عليهم، واحتمى البطريق يوحنا بأطلال قرطاجنة، وجرت معركة بحرية هُزم بها الروم، ودخل المسلمون مكان قرطاجنة، وانتقل البطريق يوحنا هارباً إلى بيزنطة.

طلب حسان النجدة البحرية من عبد الملك فأرسل له أسطولاً بإمرة عبد الملك بن قطن الفهري[1] فاستولى

---

(١) عبد الملك بن قطن بن نهشل بن عبد الله الفهري: ولد سنة ثلاثٍ وثلاثين في خلافة عثمان بن عفان، شهد وقعة الحرة

على جزر (كركنة)، ثم أرسل حسان خيلاً إلى المغرب فسيطر على (فاس)، وخلصت له المغرب تماماً، وحتى لا يعود الروم إلى قرطاجنة أنشأ حسان مرفأ تونس جنوب قرطاجنة.

وأقام حسان بعدها بالقيروان فجدّد مسجدها، ودوّن الدواوين، وضرب الدنانير والدراهم العربية، وعُزل عن إفريقية سنة خمسٍ وثمانين، فرجع قاصداً

= قرب المدينة سنة أربع وستين أيام يزيد بن معاوية، ونجا من مسلم بن عقبة مع من نجا، فقصد إفريقية، وأقام مدةً، ثم انتقل إلى الشام، وأبدى شجاعةً فأرسله عبد الملك نجدةً إلى حسان فأظهر بطولةً، وسار إلى الإندلس، واستقرّ بقرطبة، وولي أمر الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقي سنة أربع عشرة ومائة فغزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة ومائة ثم عزله أمير إفريقية عبيد الله بن الحبحاب سنة سبع عشرة ومائة، وولى على الأندلس عقبة بن الحجاج، لم يخرج منها عبد الملك بن قطن الفهري، وبقي فيها حتى توفي عقبة بن الحجاج فاختار أهل الأندلس عبد الملك بن قطن أميراً عليهم في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائة.

وجاءه بلج بن بشر لاجئاً من إفريقية في عددٍ غير قليل، فأكرمه ومن معه، ثم خاف استمرار بقائه فطلب منه الخروج من الأندلس، فثار عليه بلج وأصحابه فأخرجوه من القصر في أوائل ذي القعدة سنة ثلاثٍ وعشرين ومائة، واستولى بلج على الإمارة.

عبد الملك ومعه خمسة وثلاثون ألف فارس، كما قدم يحمل الأموال والجواهر، ثم قال: يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً وليس مثلي من يخون، وأحضر خزائن المال، فقال: ارجع إلى ولايتك فأبى، وحلف: إنه لا يلي لبني أمية أبداً. ثم خرج مجاهداً إلى أرض الروم، وتوفي بها سنة سبعٍ وثمانين.

وكان يُدعى الشيخ الأمين لثقته.

الجبهة الغربية

الفصل الخامس

أعمال عبد الملك

إن من عادة الحكام أن يختاروا أحسن المناطق فيشيدون فيها قصورهم، ويقيمون عليها منازلهم، ويصطفوا أخصب البقاع الزراعية فيتملكونها، وبذا تبقى المواقع الجرداء خاويةً والمناطق غير ذات الأهمية خاليةً فلا تتوسّع بذلك الأراضي الزراعية، ولا يستفاد من البقاع ذات المواقع غير المهمة، وهذا ما يؤثر على الاقتصاد حيث تضيع مساحات من غير فائدةٍ. وقد أدرك خلفاء بني أمية هذا الجانب فعمدوا على تغيير القاعدة التي كان يسير عليها أصحاب النفوذ، فاختاروا مواقع لهم على هامش الصحراء أرادوا إحياءها والإفادة منها، وقد رأينا كيف اختار يزيد بن معاوية منطقة حُوّارين (القريتين) اليوم، وبنى فيها قصره (قصر الحير) المعروف، فأحييت الأرض بالزراعة، وعُمرت المنطقة بالمساكن.

١ ـ اختار عبد الملك موقع عَمْرَة وهو على بعد

ستين كيلومتراً من مدينة عمّان اليوم إلى الجنوب الشرقي منها، وبينه وبين الأزرق خمسة وعشرون كيلومتراً، وهذا الموقع على مجرى السيول، فتتشبّع التربة بالمياه شتاءً، ويمكن جمع مياه السيول إضافةً إلى أن المياه الجوفية متوفّرة ـ والله أعلم ـ.

بنى عبد الملك قصراً في موقع عمرة، وما أن بني القصر حتى فُتحت الطرق إلى هذا الموقع، كما شيدت المساكن حوله، ونُظّمت الحدائق، وزُرعت بعض البقاع. وبذا أُحييت أراضي جديدة، ورُبحت مواقع سكنية إضافية، وتقدّمت المساكن والزراعة على هامش الصحراء، وما كان هذا ليتمّ لو اختار أحسن المواقع لبناء القصور في المناطق المعمورة، وأخذ أحسن الأراضي الخصبة في البقاع المزروعة.

٢ ـ يهتمّ الإسلام بالإنسان قبل الاهتمام بالبنيان فإشباع فردٍ خير من زخرفة جدارٍ، فالغرض من البناء سدّ حاجة الإيواء فإذا تأمّن الإيواء لا داعي للزخرفة والتزيين فإن ما ينفق عليها إنما هو اقتطاع من نصيب الإنسان، وتقوم حضارة الإسلام على سعادة الإنسان لذا كانت أبنية المسلمين بسيطةً دون تعقيدٍ لا زخرفة فيها ولا تزيين حتى المساجد التي هي دور العبادة كانت عاديةً مهمتها

أداء العبادة بل إن يكره فيها التزيين الذي يلفت نظر المصلي ويشغله عن أداء ما هو فيه. لذا كان بناء مسجد رسول الله، ﷺ، في المدينة في أول عهده. قواعده جذوع النخيل، وسقفه من السعف، وقد ساعدت البيئة الجافة على أن يُؤدّي هذا البناء دوره الذي وُجد له.

ومهمة المسلمين هي الدعوة وإبلاغها للناس وليس إقامة الصروح، وتشييد القصور، وتجميل السقوف، ووضع الصور على الجدران والتماثيل على الحيطان.

غير أن الشام كانت ضمن سلطان الروم النصارى الذين فُتنوا بتوسعة الكنائس، ورفع الصلبان، وإظهار صور مريم العذراء، والمسيح عليه السلام، والنقش على الجدران، وزخرفة القواعد والأركان، فبهرت هذه الكنائس أهل الشام، وهم في جاهليةٍ، حيث رأوا فيها متاحف للفنّ، ومعارض للرسم. فلما دخل الإسلام الشام ودان به أهلها، لم يروا في المساجد ما اعتادوا أن يروه في الكنائس، فكأن الأعين لم تمتلئ مهابةً، ولم تدرك القلوب الحكمة، وكانت قد شُغلت بالجهاد، وامتلأ الوقت بالدعوة فلما توقّف الفتح لأحداث الداخل، وقبع الناس يتتبعون الأخبار، فكأن بعضهم قد هانت المساجد في عينيه إذ لم يعِ البعد الإيماني بعد.

لمح عبد الملك بفكره ما يجول عند بعض المسلمين الجدد فقرر تبيان الحقيقة بالتجربة والعمل لا بالأقوال والخطب، فرفع بنيان المسجد الأقصى، وقد بدأ به لما له من مكانةٍ، وما لموقعه من منزلةٍ عند أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية من الناحية التاريخية.

كان اسم المسجد الأقصى يُطلق على الحرم القدسي الشريف كله وما فيه من منشآت أهمها قبة الصخرة المشرّفة، أما اليوم فيطلق على المسجد الكائن جنوبي ساحة الحرم. وقد دخل عليه تغييرات وإصلاحات خلال التاريخ.

يبلغ طول المسجد الأقصى من الداخل ثمانين متراً، وعرضه خمسةً وخمسين متراً. وفي المسجد سبعة أروقة، رواق أوسط وثلاثة من جهة الشرق، ومثلها من جهة الغرب ترتفع على ثلاثةٍ وخمسين عموداً من الرخام وتسعةٍ وأربعين ساريةً من الحجارة، وفي صدر المسجد القبة. وللمسجد أحد عشر باباً سبعة منها في الشمال، وواحد في الشرق، واثنان في الغرب، وواحد في الجنوب.

وجد المسلمون أن العبادة في المكان المتسع وفي قليل الاتساع واحد، وربما كان الانصراف لله في الصغير أكثر.

غير أن الذين يظهرون الإسلام ويرون غيره، ويبطنون العداوة رأوا في هذا البناء مجالاً للطعن بالإسلام فزعموا أن عبد الملك بنى هذا المسجد ليجعله موضع حج المسلمين حيث إن البيت الحرام بيد ابن الزبير هذا ما ذكره الروائي اليعقوبي. وسبقه إلى مثل ذلك شبيهه المسعودي الذي قال: ولقد بلغ بهم (بأهل الشام) في طاعتهم له (معاوية) أنه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها[1]. حيث يظنون أن الرجال في الإسلام تلعب بالشريعة كما تفعل رجالهم في عقائدهم الباطنة.

٣ ـ تتميز الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم بالتوحيد وكما تتميز بعقيدتها يجب أن تتميّز بشخصيتها فلا تكون تبعاً لغيرها في أمرٍ ولا تقلّد غيرها في شيءٍ يَحْرِمُها التميّز، ويمنعها من أن تكون ذات كيانٍ خاصٍّ. وإن مما يعطيها صفة التميّز والاستقلالية النقد. والأمة التي تستعمل نقد غيرها إنما تتبعها حيث تستطيع رفع قيمة النقد أو خفضه، وتضطر التابعة أن تسايرها وهذا ما

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ المسعودي. (سياسة معاوية).

يُؤثّر على اقتصادها. وقد كانت الدنانير والدراهم في الشام روميةً وفي العراق كسرويةً فلما جاء عبد الملك ضربها بالعربية، كي تتحرّر الأمة من كل أثرٍ.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير، وهو أول من نقشها [وقال الماوردي في الأحكام السلطانية: اختلف في أول من ضربها بالعربية في الإسلام؛ فقال سعيد بن المسيب: أول من ضرب الدراهم المنقوشة ـ عبد الملك بن مروان، وكانت الدنانير والدراهم روميةً وكسرويةً. قال أبو الزناد: وكان نقشه لها في سنة أربعٍ وسبعين. وقال المدائني: خمسٍ وسبعين، وضربت في الآفاق سنة ستٍ وسبعين، وذكر أنه ضرب على الوجه الواحد منها «الله أحد» وعلى الوجه الآخر «الله الصمد» قال: وحكى يحيى بن النعمان الغفاري عن أبيه: أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير، سنة سبعين على ضرب الأكاسرة؛ عليها «الملك» من جانبٍ و«الله» من جانبٍ آخر، ثم غيّرها الحجاج، وكتب عليها اسمه من جانب، ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك، ثم خلصها أجود منها خالد بن عبد الله

القسري في أيام هشام، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم، لذلك كان المنصور لا يقبلِ منها إلا الهبيرية، والخالدية، واليوسفية. وذكر أنه كان للناس نقود مختلفة منها: الدراهم البعلية، وكان الدرهم منها ثمانية دوانق، والطبرية، وكان الدرهم منها أربعة دوانق، واليمني دانق، فجمع عمر بن الخطاب بين البعلي والطبري ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعي ـ وهو نصف مثقال وخمس مثقال.

وذكروا أن المثقال لم يُغيّر وزنه في جاهليةٍ ولا إسلام، وفي هذا نظر والله أعلم][1].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

الفصل السادس

شخصية عبد الملك

كان عبد الملك رَبْعة من الرجال أقرب إلى القِصَر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، ولهذا كان يقال له: أبو الذباب. وكان أبيض رَبْعة ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، أشهل، كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية، حسن الوجه لم يخضب، ويقال: إنه خضّب بعد[1].

أول من سُمّي في الإسلام بـ(عبد الملك).

كان فطناً ذكياً، إذ اتجه إلى عملٍ اتقنه وتفوّق فيه. اتجه نحو العبادة بجوارحه كلها.

---

(١) البداية والنهاية.

● وقد قال نافع: لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشدّ تشميراً، ولا أفقه، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان. وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان[1].

● ونشأ في بيت الإمارة فحافظ على مكانتها بأخلاقه وسلوكه، وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناءً وولد مروان أباً ـ يعني عبد الملك. ورآه يوماً وقد ذكر اختلاف الناس، فقال: لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه. وقال عبد الملك: كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لي يوماً: يا عبد الملك إن فيك خصالاً، وإنك لجدير أن تلي أمر هذه الأمة، فاحذر الدماء، فإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: (إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمةٍ من دمٍ يريقه من مسلمٍ بغير حقٍ).

● وكان يستفيد من الموعظة ويأخذ العبرة. لما بويع لعبد الملك بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عمر

---

(١) المصدر السابق نفسه.

إلى عبد الملك أمير المؤمنين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنك راع وكل راع مسؤول عن رعيته ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾[1]. لا أحد والسلام. وبعث به مع سلام، فوجدوا عليه، إذ قدم اسمه على اسم أمير المؤمنين، ثم نظروا في كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك، فاحتملوا ذلك منه.

قال الأصمعي: خطب عبد الملك فحُصِر فقال: إن اللسان بضعة من الإنسان، وإنا نسكت حصراً، ولا ننطق هذراً، ونحن أمراء الكلام، فينا رسخت عروقه، وعلينا تدلّت أغصانه، وبعد مقامنا هذا مقام، وبعد عيّنا هذا مقال، وبعد يومنا هذا أيام يُعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب.

● وقال الأصمعي: قيل لعبد الملك أسرع إليك الشيب، فقال: وكيف لا، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعةٍ مرةً أو مرتين؟

● وقال غيره: قيل لعبد الملك: أسرع إليك

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٧.

الشيب، فقال: وتنسى ارتقاء المنبر ومخافة اللحن؟.

● وكتب أنس بن مالك يشكو الحجاج، ويقول في كتابه: لو أن رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه، تعرفه النصارى، أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك، ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا، وإني خادم رسول الله، ﷺ، وصاحبه، ورأيته وأكلت معه، ودخلت وخرجت، وجاهدت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضرّ بي، وفعل وفعل. قال: أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب، وهو يبكي، ويبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجاج بكتابٍ غليظٍ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغيّر، ثم قال إلى حامل الكتاب: انطلق بنا إليه نترضاه.

● كتب عبد الملك في أيام ابن الأشعث: إنك أعزّ ما تكون بالله أحوج ما تكون إليه، وأذلّ ما تكون للمخلوق أحوج ما تكون إليهم، وإذا عززت بالله فاعفُ له فإنك به تعزّ وإليه ترجع.

● سأل رجل عبد الملك أن يخلوَ به، فأمر من عنده بالانصراف، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم قال

له عبد الملك: احذر في كلامك ثلاثاً، إياك أن تمدحني، فإني أعلم بنفسي منك، أو تُكذّبني، فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليّ بأحدٍ من الرعية، فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي، وإن شئت أقلتك. فقال الرجل: أقلني، فأقاله. وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق: اعفني من أربع، وقل ما شئت، لا تطرني، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه، ولا تكذبني، ولا تحملني على الرعية، فإنهم إلى رأفتي ومعدلتي أحوج.

● أُتي عبد الملك برجلٍ كان مع بعض من خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك، فقال: وما جزاؤك؟ فقال: والله ما خرجت مع فلانٍ إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجلٍ قطّ إلّا غُلب وهُزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت عليك خيراً من مائة ألف معك تنصحك، لقد كنت مع فلانٍ فكُسر وهُزم وتفرّق جمعه، وكنت مع فلانٍ فقُتل، وكنت مع فلانٍ فهُزم ـ حتى عدّ جماعةً من الأمراء ـ فضحك وخلّى سبيله.

● قيل لعبد الملك: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعةٍ، وزهد عن قدرةٍ، وترك النصر عن قوة.

● قال عبد الملك: لا طمأنينة قبل الخبرة، فإن الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم.

● وقال عبد الملك لمؤدب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ـ: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنّبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رغبةً في الخير وأقلّهم أدباً، وجنّبهم الحشم، فإنهم لهم مفسدة، واعف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضاً، ويمصّوا الماء مصاً، ولا يعبوا عباً، وإذا احتجت أن تتناولهم، فتناولهم بأدبٍ، وليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم.

● أذِن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذناً خاصاً، فدخل شيخ رثّ الهيئة، لم يأبه به الحرس، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفةً، وخرج فلم يدر أين ذهب، وإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الإنسان إن الله قد جعلك بينه وبين عباده، فاحكم بينهم ﴿بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

---

(١) سورة ص: الآية ٢٦.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[١]. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾[٢] إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾[٣]، وإني أحذّرك يوم ينادي المنادي ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[٤]. ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥]. قال: فتغيّر وجه عبد الملك، فدخل دار حرمه، ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أياماً.

وكتب زِرّ بن حبيش[٦] إلى عبد الملك كتاباً، وفي

---

(١) سورة المطففين: الآيات ٤ ـ ٦.
(٢) سورة هود: الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) سورة النمل: الآية ٥٢.
(٤) سورة الصافات: الآية ٢٢.
(٥) سورة هود: الآية ١٨.
(٦) زر بن حبيش بن حباشة بن أوس: أبو مطرّف أدرك الجاهلية، ومات سنة إحدى وثمانين، وقد عاش عشرين ومائة سنة، حدّث عن عمر، وعثمان، وعليّ، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والعباس، وعمار، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن زيد، وأبي ذر، وعائشة، وقرأ على عليّ وعبد الله بن مسعود. وكان من أعرب الناس، كان ابن مسعود يسأله عن العربية.

آخره: ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك، فأنت أعلم بنفسك، واذكر ما تكلّم به الأولون.

إذا الرجال ولدت أولادها
وبليت من كبرٍ أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها
تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بلّ طرف ثوبه، ثم قال: صدق زِرّ، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق.

• خطب عبد الملك يوماً خطبةً بليغةً، ثم قطعها وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: يا ربّ إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامحُ بقليل عفوك عظيم ذنوبي. قال: فبلغ ذلك الحسن البصري، وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام. وقد روي عن غير واحدٍ نحو ذلك[1].

• دخل سلمة بن زيد بن وهب بن نُباتة الفهمي على عبد الملك، فقال له: أيّ الزمان أدركت أفضل؟

---

(١) البداية والنهاية.

وأيُّ الملوك أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أر إلا ذامّاً وحامداً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً، وكلهم يذمّ زمانه لأنه يُبلي جديدهم، ويُهرم صغيرهم، وكل ما فيه منقطع غير الأمل. قال: فأخبرني عن فَهْم، قال: هم كما قال من قال:

درج الليلُ النهارَ على فَهْـ
م بن عمرو فأصبحوا كالرميم
وخلت دارهم فأضحت يباباً
بعد عزٍّ وثروةٍ ونعيم
كذاك الزمان يذهب بالنا
س وتبقى ديار كالرسوم

قال: فمن يقول منكم:

رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا
يحبّون الغَنِيّ من الرجال
وإن كان الغنيّ قليل خيرٍ
بخيلاً بالقليل من النوال
فما أدري علامَ وفيمَ هذا
وما يرتجون من البخال
أللدنيا؟ فليس هناك دنيا
ولا يرجى لحادثة الليالي

قال: أنا[١].

● وسار عبد الملك بن مروان إلى الجهاد فكان رجل حربٍ وقتالٍ حتى أُعطي القيادة وهو في سنٍ صغيرةٍ بالنسبة للآخرين، وما انطلق إلى ساحةٍ إلا وكان من الأمراء إن لم يكن القائد. وإن فيافي إفريقية، وتلال الأناضول لتشهد له.

● وكان عبد الملك رجلاً معطاءً كريماً لا يبخل على الذين بجانبه، ولا يترك من يُؤدّون له معروفاً.

ركب عبد الملك بن مروان بكراً، فأنشأ قائده يقول:

يا أيها البكر الذي أراكا
عليك سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا
خليفة الله الذي امتطاكا
لم يحبُ بكراً مثل ما حباكا

فلما سمعه عبد الملك قال: أيها يا هناه، قد أمرت لك بعشرة آلاف[٢].

---

(١) تاريخ الطبري.
(٢) البداية والنهاية.

● ولما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى، فقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحنّ حنين الجارية والأمة؟ إذا أنا مت فشمّر، واتّزر، والبس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها، واحذر قريشاً. ثم قال له: يا وليد اتق الله فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتي، وانظر إلى أخي معاوية فصل رحمه، واحفظني فيه، وانظر إلى أخي محمد فأمّره على الجزيرة، ولا تعزله عنها، وانظر إلى ابن عمنا علي بن عبد الله بن عبّاس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته، وله نسب وحق، فصل رحمه، واعرف حقه، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذي مهّد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لكم الملك، وشتّت الخوارج. وأنهاك وإخوتك من الفرقة، وكونوا أولاد أم واحدةٍ، وكونوا في الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تُدْنِ منيةً قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويُذلّل الألسنة بالذكر الجميل، ولله درّ القائل:

إن الأمور إذا اجتمعن فرامها
بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ مفنّد
عزّت فلم تكسر وإن هي بددت
فالكسر والتوهين للمتبدّد

ثم قال: إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك، فمن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فأكرمهن وأحبهن إلي فاطمة ـ وكان قد أعطاها قرطَي مارية والدرة اليتيمة، ثم قال: اللهم احفظني فيها، فتزوجها عمر بن عبد العزيز، وهو ابن عمها.

ولما احتضر سمع غسّالاً يغسل الثياب، فقال: ما هذا؟ فقالوا: غسّال، فقال: يا ليتني كنت غسّالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيومٍ، ولم أل الخلافة، ثم تمثّل فقال:

لعمري لقد عمرت في الملك برهةً
ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حمر المال والحكم والنهى
ولي سلّمت كل الملوك الجبابر
فأضحى الذي قد كان مما يسرّني
كحلم مضى في المزمنات الغوابر
فيا ليتني لم أُعْنَ بالملك ليلةً
ولم أسع في لذّات عيشٍ نواضر

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبي سفيان عند موته.

● قيل لعبد الملك في مرض موته: كيف تجدك؟

فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾[1].

● وقال سعيد بن عبد العزيز: لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فُتحت سمع قصاراً[2] بالوادي، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصّار، فقال: يا ليتني كنت قصّاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرّون إلينا، ولا نفرّ إليهم.

● وقال: لما حضره الموت جعل يندم، ويندب، ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت أني اكتسبت قوتي يوماً بيومٍ، واشتغلت بعبادة ربي عزّ وجلّ وطاعته.

وقال غيره: لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصّاهم، ثم قال: الحمد لله الذي لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً، ثم ينشد:

فهل من خالدٍ إمّا هلكنا
وهل بالموت للباقين عار

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

(٢) القصار: الذي يصلح الثياب، وحرفته القِصارة.

● ويروى أنه قال: ارفعوني فرفعوه حتى شمّ الهواء، وقال: يا دنيا ما أطيبك، إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإنا كنا بك لفي غرور، ثم تمثّل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب
عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح
عن مسيءٍ ذنوبه كالتراب

وكانت وفاته يوم الجمعة في النصف من شعبان سنة ستٍّ وثمانين، وكان عمره يوم مات ستين سنةً، وصلّى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده، ودُفن بباب الجابية الصغير[1].

رجال عبد الملك:

كان أبو إدريس الخولاني[2]. القاضي.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) أبو إدريس الخولاني: عائذ الله بن إدريس بن عبد الله بن عتبة، ولد عام الفتح، وحدّث عن أبي ذرّ، وأبي الدرداء، وأبي موسى، وأبي هريرة، وعبادة بن الصامت، وحذيفة بن اليمان، وشدّاد بن أوس، وابن عباس، وعقبة بن عامر=

روح بن زنباع. الكاتب.

مولاه يوسف. الحاجب.

قبيصة بن ذؤيب. صاحب بيت المال، والخاتم.

أبو الزعيزعة. صاحب الشرطة.

ولاية العهد:

كان مروان بن الحكم قد عهد من بعده لولديه عبد الملك ثم لعبد العزيز على ما تحت يديه من نفوذٍ، وقد كان نفوذه يمتدّ على الشام مصر.

تسلّم عبد الملك سلطان أبيه مروان على حين كان عبد العزيز والياً على مصر. وفي سنة خمسٍ وثمانين فكر عبد الملك في خلع أخيه عبد العزيز والعهد لولده الوليد بن عبد الملك غير أن قبيصة بن ذؤيب قد نهاه، وقال له: لا تفعل هذا، فإنك باعث على نفسك صوت نعّار، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكفّ عبد الملك

= الجهني، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية بن أبي سفيان، وعوف بن مالك الأشجعي، وأبي مسلم الخولاني. كان من فقهاء الشام، وهو عالم الشام وواعظها بعد أبي الدرداء. ولاّه عبد الملك القضاء. وتوفي سنة ثمانين.

عن ذلك ونفسه تنازعه إلى أن يخلعه. ودخل عليه روح بن زنباع الجذامي ـ وكان أجلّ الناس عند عبد الملك ـ فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان، فقال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: إي والله، وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصيحٌ إن شاء الله. قال: فبينا هو على ذلك، وقد نام عبد الملك وروح بن زنباع إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب طروقاً، وكان عبد الملك قد تقدّم إلى حجابه، فقال: لا يحجب عني قبيصة أي ساعةٍ جاء من ليلٍ أو نهارٍ، إذا كنت خالياً أو عندي رجل واحد، وإن كنت عند النساء أُدخِل المجلس، وأُعلمت بمكانه فدخل، وكان الخاتم إليه، وكانت السكّة إليه، تأتيه الأخبار قبل عبد الملك، ويقرأ الكتب قبله، ويأتي بالكتاب إلى عبد الملك منشوراً فيقرؤه، إعظاماً لقبيصة ـ فدخل عليه فسلّم عليه وقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك عبد العزيز، قال: وهل توفي؟ قال: نعم، فاسترجع عبد الملك، ثم أقبل على روح، فقال: كفانا الله أبا زرعة ما كنا نريد وما أجمعنا عليه، وكان ذلك مخالفاً لك يا أبا إسحاق، فقال قبيصة: ما هو؟ فأخبره بما كان، فقال قبيصة: يا أمير المؤمنين، إن الرأي كله في الأناة، والعجلة فيها ما فيها. فقال عبد الملك: ربما كان في العجلة خير كثير، رأيت

أمر عمرو بن سعيد، ألم تكن العجلة فيه خير من التأنّي.

توفي عبد العزيز بمصر في جمادى الأولى سنة خمسٍ وثمانين فضمّ عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك، وولاّه مصر.

وقيل: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يُزيّن له بيعة الوليد، وأوفد وفداً في ذلك عليهم عمران بن عصام العنزي[1]، فقام عمران خطيباً، فتكلّم وتكلّم الوفد، وحثّوا عبد الملك، وسألوه ذلك، فقال عمران بن عصام:

أمير المؤمنين إليك نُهدي
على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جوابي
لهم عاديةً ولنا قِواما
فلو أن الوليد أُطاع فيه
جعلت له الخلافةَ والذِّماما

---

(١) عمران بن عصام العنزي: خطيب شاعر، من الشجعان، مدح المهلب بن أبي صفرة عندما أمر بصنع الرُّكُب من الحديد بعد أن كانت من الخشب، واتهمه الحجاج بالانحياز إلى ابن الأشعث، وطلبه فقتله وذلك سنة خمس وثمانين.

شبيهك حول قُبّته قريش

به يستمطر الناسُ الغماما

ومثلك في التقى لم يصبُ يوماً

لدن خلع القلائد والتِّماما

فإن تُؤثر أخاك بها فإنّا

وجدّك لا نطيق لها اتِّهاما

ولكنّا نحاذر من بنيه

بني العَلَّات مأثرةً سَماما

ونخشى إن جعلت الملك فيهم

سحاباً أن تعود لهم جَهاما

فلا يكُ ما حَلَبْتَ غداً لقومٍ

وبعد غدٍ بنوك هم العِياما

فأقسم لو تخطّأَني عصام

بذلك ما عذرت به عصاما

ولو أني حبوت أخاً بفضلٍ

أريد به المقالة والمقاما

لعقّب في بنيّ على بنيه

كذلك أو لرفت له مراما

فمن يك في أقاربه صدوع

فصدع الملك أبطؤه التئاما

فقال عبد الملك: يا عمران، إنه عبد العزيز، قال: احْتَلْ له يا أمير المؤمنين.

ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد كتب إلى أخيه: إن رأيت أن تُصيّر هذا الأمر لابن أخيك، فأبى، فكتب إليه: فاجعلها له من بعدك، فإنه أعزّ الخلق على أمير المؤمنين، فكتب إليه عبد العزيز: إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد. فقال عبد الملك: اللهم إن عبد العزيز قطعني فاقطعه. فكتب إليه عبد الملك: احمل خراج مصر. فكتب إليه عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت ألا تُغثّث عليّ بقية عمري فافعل.

فرقّ له عبد الملك، وقال: لعمري لا أُغثّث عليه بقية عمره، وقال لابنيه: إن يُرد الله أن يعطيكموها لا يقدر أحد من العباد على ردّ ذلك. وقال لابنيه الوليد وسليمان: هل قارفتما حراماً قط؟ قالا: لا والله، قال: الله أكبر، نلتماها ورب الكعبة.

فلما أبى عبد العزيز أن يجيب عبد الملك إلى ما أراد، قال عبد الملك: اللهمّ قد قطعني فاقطعه، فلما

مات عبد العزيز قال أهل الشام: ردّ على أمير المؤمنين أمره، فدعا عليه، فاستجيب له.

كتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد الأنصاري، وكتب إليه: إن أردت رجلاً مأموناً، فاضلاً، عاقلاً، وديعاً، مسلماً، كتوماً تتخذه لنفسك وتضع عنده سرّك، وما لا تحبّ أن يظهر فاتّخذ محمد بن يزيد. فكتب إليه عبد الملك: احمله إليّ، فحمله، فاتّخذه عبد الملك كاتباً. قال محمد: فلم يكن يأتيه كتاب إلا دفعه إليّ، ولا يستر شيئاً إلا أخبرني به وكتمه الناس، ولا يكتب إلى عاملٍ من عماله إلا أعلمنيه، فإني لجالس يوماً نصف النهار إذا ببريدٍ قد قدم من مصر، فقال: الإذن على أمير المؤمنين. قلت: ليست هذه ساعة إذنٍ، فأعْلمني ما قدمت له، قال: لا. قلت: فإن معك كتاب فادفعه إليّ. قال: لا. قال: فَأَبْلَغَ بعض من حضرني أمير المؤمنين، فخرج، فقال: ما هذا؟ قلت: رسول قدم من مصر، قال: فخذ الكتاب، قلت: زعم أنه ليس معه كتاب، قال: فسله عما قدم له، قلت: قد سألته فلم يخبرني، قال: أدخله، فأدخلته، فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في عبد العزيز، فاسترجع وبكى ووجم

ساعةً ثم قال: يرحم الله عبد العزيز، مضى والله عبد العزيز لشأنه، وتركنا وما نحن فيه، ثم بكى النساء وأهل الدار، ثم دعاني من غدٍ، فقال: إن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قد مضى لسبيله، ولا بدّ للناس من عَلَمٍ وقائمٍ يقوم بالأمر من بعدي، فمن ترى؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، سيّد الناس وأرضاهم وأفضلهم الوليد بن عبد الملك، قال: صدقت وفّقك الله! فمن ترى أن يكون بعده؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أين تعدلها عن سليمان فتى العرب، قال: وُفِّقتَ، أما إنا لو تركنا الوليد وإياها لجعلها لبنيه، اكتب عهداً للوليد وسليمان من بعده، فكتبت بيعة الوليد ثم سليمان من بعده. فغضب عليّ الوليد فلم يولّني شيئاً حين أشرت بسليمان من بعده.

كتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومي أمير المدينة أن يدعو الناس لبيعة الوليد وسليمان، فبايعوا غير سعيد بن المسيب، فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حيّ. فضربه هشام ضرباً مبرحاً وألبسه المسوح، وكتب إلى عبد الملك يخبره بخلافه، وما كان من أمره، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع، ويقول: سعيد كان أحوج أن تصل رحمه

من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عنده من شقاقٍ ولا خلافٍ[1].

---

(١) تاريخ الطبري.

البَابُ الثّاني

أسْرَة عَبْدُ المَلِك

يعود عبد الملك إلى بني أمية بن عبد شمس، وعبد شمسٍ أحد أفخاذ عشيرة بني عبد مناف أحد بطون قريشٍ.

وعبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فهو يلتقي بالجد السادس مع رسول الله، ﷺ.

وكان أمية بن عبد شمس يُنافس عمّه هاشماً الذي اشتهر في قبيلته قريش، وعُرف بين العرب، لذا عُرف هذا الخلاف وذاع بين هاتين الأسرتين في الجاهلية بني هاشم، وبني أمية.

وجاء الإسلام وقضى على ما كان من الجاهلية وأعرافها، ورسّخ في نفوس أبنائه تعاليمه التي أمر بها خالق البشر، غير أن المغرضين من أصحاب الأهواء يُعيدون إلى الأذهان باستمرار ما كان في الجاهلية لينخروا في المجتمع الإسلامي من داخله، فما أن يقع خلاف بين اثنين أو فرقة بين فئتين حتى يُرجعوها إلى آثار

الجاهلية، بل لو قضى قاضٍ على فردٍ له صلة ببني هاشم لادّعوا أن القاضي حكم بأمر الخليفة على الهاشمي لما بين العشيرتين من خصومةٍ وخلافٍ مُذكّرين بما كان في الجاهلية، وقد سحبوه على أيام الإسلام ظلماً وزوراً، وكأن الأثر الإسلامي لم يكن، ولم تكن له تلك القيمة.

جاء الإسلام فأسرع أفراد وسبقوا، وتأخّر آخرون وتخلّفوا، وأبى بعضهم ورفضوا، وماتوا وهم كفار، وهذا من مختلف بطون قريش.

أسرع عليّ وجعفر ابنا أبي طالبٍ إلى الإسلام، وتأخّر الحمزة والعباس، وأبى أبو طالبٍ وأبو لهبٍ، وماتا على غير الإسلام، هذا بالنسبة إلى بني هاشم. وأسلم عثمان بن عفّان، وخالد، وعمرو ابنا سعيد بن العاص، وتأخّر أبو سفيان وأبناؤه، والحكم بن أبي العاص، وخالد وعتّاب ابنا أسيد بن أبي العيص، وأبى عقبة بن أبي معيط وقُتل كافراً، هذا بالنسبة إلى بني أمية. فالتشابه واضح بل واحد بالنسبة إلى بطون قريشٍ، فما من بطنٍ إلا وأقبل منه أفراد، وتأخّر آخرون، وأبى عدد من أبنائه، وماتوا ولم يدخلوا في الإسلام إلا أن أصحاب الأهواء قد تكلّموا عن المنافسة الجاهلية بين بني هاشم، وبني أمية، وركّزوا على الذين أسلموا من بني

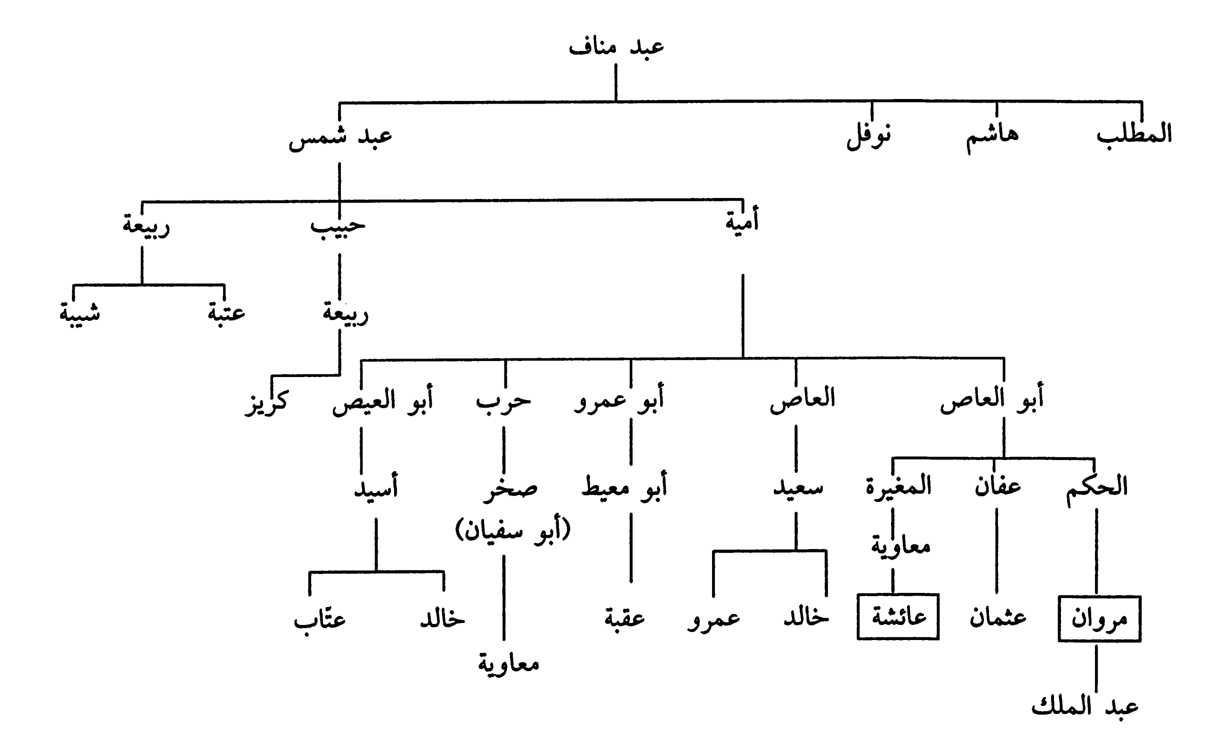
هاشم، وعلى الذين تخلّفوا من بني أمية، وعلى كبارهم الذين قادوا الحملات على المسلمين أمثال أبي سفيان الذي قاد من بقي من قريشٍ على جاهليته، وحارب المسلمين يوم أُحُدٍ ويوم الخندق، حتى صارت صورة بني أمية قاتمةً في نظر العامة. كما كان للعاطفة دور كبير، فبنو هاشمٍ رهط رسول الله، ﷺ، فعاطفة المسلمين بجانبهم، وكراهية المسلمين لكل من نافس بني هاشمٍ، أو خالفهم، أو حاربهم. لذا فإن أهل الأهواء والفتن، قد تحدّثوا كثيراً عن المنافسة في الجاهلية بين بني هاشمٍ وبني أمية فشدّوا الناس بعاطفتهم نحو بني هاشم، وأبعدوهم بتقرّبهم من بني هاشمٍ عن بني أمية. ولم تكن كراهية بني أمية على أنهم بطن من قريشٍ ينافس البطن الآخر، ولكن بصفتهم تسلّموا الخلافة، فالهجوم على الخليفة هجوم على الإسلام لأن الخليفة إنما يمثّل الإسلام. وكراهية الخليفة وأسرته إنما تؤدّي إلى إحداث فتنةٍ في المجتمع الإسلامي، وهذا ما يسعى له أعداء الإسلام. والفتنة تُضعف المسلمين، وإذا ضعف المسلمون قوي أعداؤهم، ولربما حقّقوا بعض النصر، واسترجعوا بعض ما كان لهم، ومن أجل هذا يعملون ويثيرون الفتن والخلافات في المجتمع الإسلامي.

أسلم الحكم بن أبي العاص يوم الفتح، فهو من الطلقاء، ثم سيّره رسول الله، ﷺ، إلى بطن «وج»[1]، وقد بقي هناك وفي مكة، حتى خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فأذن له فدخل المدينة، فمات بها في خلافة عثمان، رضي الله عنه. وهو عمّ عثمان.

كان للحكم واحد وعشرون ولداً من الذكور، وثمانٍ من الإناث.

---

(١) وج: الطائف.

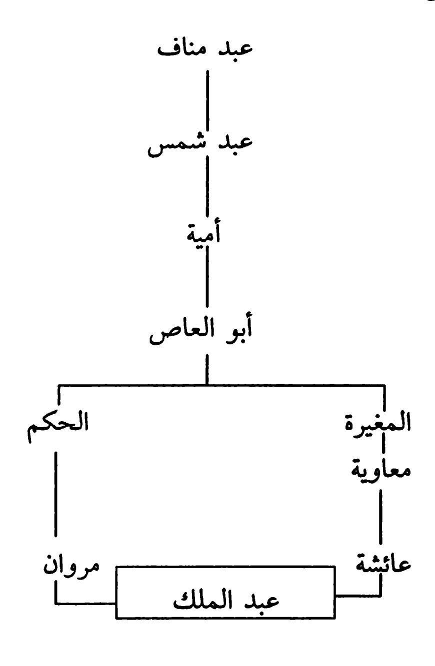


عبد مناف
المطلب
هاشم
نوفل
عبد شمس
أمية
حبيب
ربيعة
ربيعة
عتبة
شيبة
كريز
أبو العاص
العاص
أبو عمرو
حرب
أبو العيص
الحكم
عفان
المغيرة
سعيد
أبو معيط
صخر
(أبو سفيان)
أسيد
معاوية
مروان
عثمان
عائشة
خالد
عمرو
عقبة
معاوية
خالد
عتّاب
عبد الملك

الفصل الأول

والد عبد الملك

عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.



مروان بن الحكم:

ولد في مكة في السنة الثانية للهجرة، وانتقل رسول الله، ﷺ، من الدار الدنيا، وعمر مروان ثمان سنوات، انتقل إلى المدينة مع أبيه في خلافة ابن عمه عثمان بن عفان، رضي الله عنه. ولم يزل مروان مع أبيه في المدينة حتى توفي والده في خلافة عثمان.

عمل مروان كاتباً لابن عمه الخليفة، وقرّبه بالعطاء من ماله الخاص. فلما حوصر الخليفة، وبدأت الفتنة كان مروان في الدار معه، ويُقاتل دونه. وخرج مروان بن الحكم يومئذٍ يرتجز، ويقول: من يبارز؟ فبرز له عروة بن شُيَيْم بن البيّاع الليثي فضربه على قفاه بالسيف فخر لوجهه، فقام إليه عبيد بن رفاعة بن رافع الزرقي بسكينٍ معه ليقطع رأسه، فقامت إليه أمه التي أرضعته، وهي فاطمة الثقفية، وهي جدّة إبراهيم بن العربي. صاحب اليمامة، فقالت: إن كنت تريد قتله فقد قتلته، فما تصنع بلحمه أن تبضّعه؟ فاستحيا عبيد بن رفاعة منها فتركه[1].

وخرج مع طلحة، والزبير، وعائشة إلى البصرة

---

(١) طبقات ابن سعد.

يطالبون بدم عثمان، فقاتل مروان يوم الجمل حتى ارتُثّ فحمل إلى بيت امرأةٍ من عَنَزَة فداووه، وقاموا عليه، فما زال آل مروان يشكرون ذلك لهم. وانهزم أصحاب الجمل وتوارى مروان حتى أُخذ له الأمان من علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فأمّنه، فقال مروان: ما تُقِرّني نفسي حتى آتيَه فأُبايعه. فأتاه فبايعه[1].

انصرف مروان إلى المدينة، وبقي فيها حتى آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما.

ولي مروان أمر البحرين لمعاوية في أول عهده، ثم انتقل إلى إمرة المدينة في أواخر عام ٤١ للهجرة، وبقي أميراً عليها حتى عام ٤٩ حيث عُزل، وتولى إمرتها سعيد بن العاص حتى عام ٥٤ حيث أُعيد مروان للإمرة حتى عام ٥٧ حيث عُزل، وتولّى أمر المدينة بعده الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

بقي مروان في المدينة، وأميرها الوليد بن عتبة، وتوفي معاوية سنة ٦٠، وعزل يزيد عن المدينة ابن عمه الوليد بن عتبة، وولّى عليها ابن عمه الآخر عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

ثار أهل المدينة أيام الحرة على يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد وبني أمية من المدينة فأجلوهم عنها إلى الشام، وفيهم مروان بن الحكم، وأخذوا عليهم الأيمان ألا يرجعوا إليهم، وإن قدروا أن يردّوا هذا الجيش الذي وُجّه إليهم مع مسلم بن عقبة المرّيّ أن يفعلوا. فلما استقبلوا مسلم بن عقبة سلّموا عليه، وجعل يسائلهم عن المدينة وأهلها، فجعل مروان يخبره، ويحرّضه عليهم، فقال له مسلم: ما ترون؟ تمضون إلى أمير المؤمنين أو ترجعون معي؟ فقالوا: بل نمضي إلى أمير المؤمنين. وقال مروان من بينهم: أما أنا فأرجع معك. فرجع معه مؤازراً له معيناً له على أمره حتى ظفروا بأهل المدينة، وقتلوا، وانتهبت المدينة ثلاثاً. وكتب مسلم بن عقبة بذلك، وكتب يشكر مروان بن الحكم، ويذكر معونته إياه، ومناصحته، وقيامه معه. وقدم مروان على يزيد بن معاوية الشام فشكر له ذلك يزيد وقرّبه وأدناه. فلم يزل مروان بالشام حتى مات يزيد بن معاوية، وقد كان عقد لابنه معاوية بن يزيد بالعهد بعده، فبايع له الناس، وأتته بيعة الآفاق إلا ما كان من ابن الزبير، وأهل مكة.

ولي معاوية بن يزيد ثلاثة أشهرٍ، ويقال: أربعين ليلةً، ولم يزل في البيت لم يخرج إلى الناس. كان

مريضاً فكان يأمر الضحاك بن قيس الفهري يصلّي بالناس بدمشق. فلما ثقل معاوية بن يزيد، قيل له: لو عهدت إلى رجلٍ عهداً، واستخلفت خليفةً، فقال: والله ما نفعتني حياً فأتقلدها ميتاً، وإن كان خيراً فقد استكثر منه آل أبي سفيان، لا تذهب بنو أمية بحلاوتها، وأتقلّد مرارتها، والله لا يسألني الله عن ذلك أبداً ولكن إذا متّ فليصل عليّ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم، ويقوم بالخلافة قائم. فلما مات صلّى عليه الوليد، وقام بأمر الناس الضحّاك بن قيس(١).

وكان عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قد أعلن خلافته، وبايعته الأمصار كلها إلا ما كان في الشام من خلافٍ رغم أن أكثر أجنادها قد بايعت له.

اختلف الناس بالشام فكان أول من خالف من الأجناد، ودعا إلى ابن الزبير النعمان بن بشير بحمص، وزفر بن الحارث بقِنّسرين، ثم دعا الضحاك بن قيس بدمشق الناس سرّاً، ثم دعا الناس إلى بيعة ابن الزبير علانيةً، فأجابه الناس إلى ذلك وبايعوا له. كما كان

---

(١) طبقات ابن سعد.

ناتل بن قيس الجذامي، قد دخل فلسطين، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، ودعا ناتل بن قيس لابن الزبير. وبذا انعقدت البيعة لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، إذ بايعته الأمصار كلها بما فيها الشام إلا ما كان من جند الأردن إذ كان أميرها حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي يريد البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية حيث كان يزيد بن معاوية ابن أخت حسان، وهي ميسون بنت مالك بن بحدل.

لما بلغ عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، بيعة الشام كتب إلى الضحاك بن قيس الفهري بعهده على الشام. فكتب الضحاك إلى أمراء الأجناد ممن دعا إلى ابن الزبير فأتوه. فلما رأى ذلك مروان بن الحكم خرج يريد ابن الزبير بمكة ليبايع له، ويأخذ منه أماناً لبني أمية، وخرج معه عمرو بن سعيد بن العاص، فلما كانوا بـ(أذرعات)[1] وهي مدينة البَثَنِيّة لقيهم عبيد الله بن زياد مقبلاً من العراق، فقال لمروان: «استحييت لك ما تريد، أنت قريش وسيدها وتصنع ما تصنعه» فدبّ الأمل في نفس مروان، وأجاب «ما فات شيء» وكفل

---

(١) أذرعات: هي (درعا) اليوم قاعدة حوران من الشام.

عبيد الله خديعة الضحّاك بن قيس. فقال عمرو بن سعيد: صدق عبيد الله، وما ينظر الناس إلا إلى هذا الغلام خالد بن يزيد بن معاوية، فتزوّجْ أمه فيكون في حجرك، وادعُ إلى نفسك فأنا أكفيك اليمانية فإنهم لا يخالفونني، وكان مطاعاً عندهم، على أن تبايع لي من بعدك. قال: نعم. فرجع مروان، وعمرو بن سعيد، ومن كان معهما.

قدم عبيد الله بن زياد دمشق يوم الجمعة فدخل المسجد فصلّى، ثم خرج فنزل باب الفراديس، فكان يركب إلى الضحاك بن قيس كل يوم، فيسلّم عليه، ثم يرجع إلى منزله، فقال له يوماً: يا أبا أنيس، العجب لك وأنت شيخ قريش تدعو لابن الزبير، وتدع نفسك، وأنت أرضى عند الناس منه، فادعُ إلى نفسك. فدعا إلى نفسه ثلاثة أيام، فقال له الناس: أخذت بيعتنا وعهودنا لرجلٍ ثم تدعو إلى خلعه من غير حَدَثٍ أحدثه! فلما رأى ذلك عاد إلى الدعاء لابن الزبير، فأفسده ذلك عند الناس، وغيّر قلوبهم عليه.

وقال عبيد الله بن زياد للضحّاك، ومكر به: من أراد ما تريد لم ينزل المدائن والحصون، يبرز ويجمع إليه الخيل، فاخرج من دمشق، واضمم إليك الأجناد.

فخرج الضحاك فنزل المرج[1]، وبقي عبيد الله بن زياد بدمشق، ومروان بن الحكم وبنو أمية بتدمر، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية بالجابية عند خالهما حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي.

خلت دمشق من أميرها الضحاك الذي أقام بمرج راهط، والواقع أن الناس بدمشق قد اختلفوا، فالقيسية مع الضحاك تدعو لابن الزبير، واليمانية تدعو لبني أمية، ووقعت فتنة في المسجد كادت أن تستفحل لولا أن الضحاك تدارك الأمر، ورأى أن يدرس الموضوع، واتفق مع بني أمية على أن يلتقوا بالجابية[2] مع حسان بن مالك بن بحدل.

جاء بنو أمية من تدمر، وساروا نحو الجابية، وسار الضحاك بن قيس مع قومه فجاءه ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس، فقال له: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من

---

(١) المرج: مرج راهط شمال شرقي دمشق بعشرة كيلو مترات، موقع حرستا اليوم، وإلى السفوح الجبلية.

(٢) الجابية: كانت قديماً مدينةً عامرةً، واليوم أطلال قرب نوى من أعمال حوران، إلى الجنوب الغربي من دمشق وعلى بعد ٧٠ كيلو متراً منها.

كلب تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد، فقال له الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تُظهر ما كنا نسر، وندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونقاتل عليها. فمال الضحاك بمن معه من الناس فعطفهم، ثم أقبل يسير حتى نزل بـ(مرج راهط). وكتب الضحاك إلى أنصاره على المناطق يستمدهم، فأمدّه النعمان بن بشير من حمص بـ(شرحبيل بن ذي الكلاع) وسار زفر بن الحارث بأهل قنسرين، وأمدّه ناتل بن قيس بأهل فلسطين، فاجتمع الجميع بـ(مرج راهط) إلى جانب الضحاك.

وكتب عبيد الله بن زياد إلى مروان بن الحكم أن ادعُ الناس إلى بيعتك، واكتب إلى حسان بن مالك فليأتك فإنه لن يردّك عن بيعتك، ثم سر إلى الضحاك فقد أصحر لك. فدعا مروان بني أمية ومواليهم فبايعوه، وتزوّج أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة. وكتب إلى حسان بن مالك بن بحدل يدعوه أن يبايع له، ويقدم عليه، فأبى، فأسقط في يدي مروان، فأرسل إلى عبيد الله، فكتب إليه عبيد الله أن اخرج إليه فيمن معك من بني أمية. فخرج إليه مروان وبنو أمية جميعاً معه، وهو بالجابية، والناس بها مختلفون.

في الجابية:

وصل مروان بن الحكم ومن معه إلى الجابية، فدعا حسان بن مالك بن بحدل إلى البيعة. فقال حسان: والله لئن بايعتم مروان ليحسدنكم علاقة سوطٍ، وشراك نعلٍ، وظل شجرة، إن مروان وآل مروان أهل بيتٍ من قيس، يريد أن مروان أبو عشرة وأخو عشرة، فإن بايعتم له كنتم عبيداً لهم، فأطيعوني وبايعوا خالد بن يزيد. فقال روح بن زنباع: بايعوا الكبير، واستشبّوا الصغير. فقال حسان بن مالك لخالد: يا ابن أختي هواي فيك، وقد أباكِ الناس للحداثة، ومروان أحبّ إليهم منك ومن ابن الزبير. قال: بل عجزت. قال: كلا.

إذن كانت الأهواء بالجابية مختلفة. فحسان بن مالك بن بحدل الكلبي يريد ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية. وكذا مالك بن هبيرة السكوني. أما الحصين بن نُمير السكوني فكان يرى أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم، وقال لهم: لعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ، ونأتيهم بصبيّ. ثم اتفقت كلمة بني أمية ومن والاهم من كلب، وجذام، والسكون، وغسّان واليمانية عامةً على أن يبايعوا لمروان بن الحكم، ثم تكون من بعده لخالد بن يزيد بن معاوية، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص.

بايع حسّان بن مالك وأهل الأردن لمروان على أن لا يبايع مروان لأحدٍ إلا خالد بن يزيد. ولخالد إمرة حمص، ولعمرو بن سعيد إمرة دمشق. فكانت بيعة مروان بالجابية يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة أربعٍ وستين.

إن هذا الذي يجري لم يتجاوز منطقة الأردن والجابية أما الأمصار الإسلامية كلها وبقية أجناد الشام فقد بايعت عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وغدا الخليفة الشرعي، ومن يبايع له غيره فهو خارج ويُقتل.

تبدّل موازين القوى:

كان الضحاك بن قيس الفهري حتى الآن الأمير الشرعي على الشام من قِبَل الخليفة عبد الله بن الزبير، ويُعسكر في مرجٍ راهط، ويُؤيّده معظم الأجناد في الشام: دمشق، حمص، قنسرين، فلسطين.

كان يزيد بن أبيَ النمس الغساني في دمشق، ولم يشهد الجابية، فتحرّك في دمشق، وغلب عليها، وأخرج منها عامل الضحاك بن قيس، وغلب على بيت المال، وأمر مروان بالرجال، والأموال، والسلاح. وبايع عبيد الله بن زياد لمروان بن الحكم أهل دمشق، وكتب

بذلك إلى مروان. فقال مروان: إن يرد الله أن يتمّم لي خلافة لا يمنعنيها أحد من خلقه. فقال حسّان بن مالك: صدقت.

سار مروان من الجابية في ستة آلافٍ حتى نزل مرج راهط، ثم لحق به من أصحابه من أهل دمشق وغيرهم من الأجناد سبعة آلاف فكان في ثلاثة عشر ألفاً أكثرهم رجّالة. وكان على ميمنة مروان عبيد الله بن زياد، وعلى ميسرته عمرو بن سعيد.

وكتب الضحاك بن قيس إلى أمراء الأجناد، فتوافوا عنده بالمرج فكان في ثلاثين ألفاً، وأقاموا عشرين يوماً يلتقون في كل يومٍ فيقتتلون حتى قتل الضحّاك بن قيس، وقُتل معه من قيسٍ بشر كثير. فلما قُتل الضحاك بن قيس وانهزم الناس، رجع مروان ومن معه إلى دمشق. وعاد أهل حمص ففرّ منها النعمان بن بشير فلاحقوه وقتلوه، وسار زفر بن الحارث الكلابي إلى قرقيسيا على نهر الفرات فتحصّن بها، وثابت إليه القيسية، وفرّ ناتل بن قيس ولحق بعبد الله بن الزبير. وهكذا أضحى مروان بن الحكم سيد بلاد الشام وذلك في مطلع عام ٦٥. وبعث مروان بن الحكم عماله على الأجناد، وبايعه أهل الشام جميعاً.

كان مروان قد أطمع خالد بن يزيد في بعض الأمر، ثم بدا له غير ذلك فعقد لابنيه عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان بالخلافة بعده فأراد أن يضع من خالد بن يزيد، ويقصّر به، ويزهّد الناس فيه.

الصراع:

أصبحت الشام كلها بيد مروان بن الحكم، وما عداها من الأمصار فهي تتبع خليفة المسلمين عبد الله بن الزبير، ويعدّ مروان بن الحكم بهذا خارجاً عن الطاعة.

بعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً ليفتح بلاد الشام فأرسل له مروان جيشاً بإمرة عمرو بن سعيد فالتقيا بفلسطين فرجع مصعب، وثبت حكم مروان في الشام.

سار مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد إلى مصر فخرج إليهما عبد الرحمن بن جحدر والي عبد الله بن الزبير فشاغله مروان، وخلص عمرو بن سعيد بقسمٍ من الجيش من وراء عبد الرحمن إلى مصر فدخلها.

أقام مروان شهراً بمصر، ثم ترك ابنه عبد العزيز والياً عليها، وترك معه أخاه بشر بن مروان، وموسى بن نصير وزيراً له، ورجع هو إلى الشام.

جهّز مروان جيشين أحدهما بإمرة عبيدِ الله بن زياد

والآخرة بإمرة حبيش بن دلجة العتيبي لأخذ العراق من نواب ابن الزبير. فالتقى الجيش الأول مع التوابين في عين الوردة[1] في الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة خمسٍ وستين، فانتصر التوابون على الحصين بن نميرٍ الذي كان قائد فرقةٍ من جيش عبيد الله بن زياد، ثم جاء مدد للمروانيين بإمرة شرحبيل بن ذي الكلاع فانتصروا على التوابين، وقتلوا قادتهم على التوالي: سليمان بن صُرَد، المسيب بن نجية، عبد الله بن سعد بن نفيل، عبد الله بن وال. ثم انسحب التوابون تحت جنح الظلام بإمرة رفاعة بن شداد. ولكن الجيش المرواني لم يتقدّم في العراق لما فيها من أحداثٍ ونزاعاتٍ، بل تحرّك نحو الجزيرة الفراتية. ثم رجع ليستعدّ ليداهم العراق من الغرب مع نهر الفرات ليسير مباشرةً إلى الكوفة.

وجهّز مروان جيشاً إلى الجزيرة الفراتية بإمرة ابنه محمد بن مروان.

ولم تمض مدة حتى توفي مروان بن الحكم، وبويع لولي عهده من بعده ابنه عبد الملك بن مروان.

---

(١) عين وردة: لعلها رأس العين اليوم في الجزيرة الفراتية.

وفاة مروان:

توفي مروان بن الحكم في الثالث من شهر رمضان سنة خمسٍ وستين. ويروى في وفاته: أنه كان إذا دخل عليه خالد بن يزيد بن معاوية أجلسه معه على سريره، فدخل عليه يوماً فذهب ليجلس مجلسه الذي كان يجلسه فقال له مروان وزبره: تنحّ يا ابن رَطْبة الأست والله ما وجدت لك عقلاً. فانصرف خالد وقتئذٍ مغضباً حتى دخل على أمه فقال: فضحتِني، وقصّرت بي، ونكّستِ برأسي، ووضعت أمري. قالت: وما ذاك؟ قال: تزوّجت هذا الرجل فصنع بي كذا وكذا، ثم أخبرها بما قال، فقالت له: لا يسمع منك هذا أحد، ولا يعلم مروان أنك أعلمتني بشيءٍ من ذلك، وادخل عليّ كما كنت تدخل، واطوِ هذا الأمر حتى ترى عاقبته، فإني سأكفيكه، وأنتصر لك منه. فسكت خالد، وخرج إلى منزله، وأقبل مروان فدخل على أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، وهي امرأته، فقال لها: ما قال لك خالد ما قلت له اليوم، وما حدّثك به عني؟ فقالت: ما حدّثني بشيءٍ ولا قال لي. فقال: ألم يشكني إليك، ويذكر تقصيري به، وما كلّمته به؟ فقالت: يا أمير المؤمنين أنت أجلّ في عين خالد، وهو أشدّ لك تعظيماً

من أن يحكي عنك شيئاً، أو يجد من شيءٍ تقوله، وإنما أنت بمنزلة الوالد له. فانكسر مروان، وظنّ أن الأمر على ما حكت له، وأنها قد صدقت. ومكث حتى إذا كان بعد ذلك، وحانت القائلة فنام عندها، فوثبت هي وجواريها فغلّقن الأبواب على مروان، ثم عمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه، فلم تزل هي وجواريها يغممنه حتى مات، ثم قامت فشقّت عليه جيبها، وأمرت جواريها وخدمها فشققن وصحن عليه، وقلن: مات أمير المؤمنين فجأةً. وذلك في هلال شهر رمضان سنة خمسٍ وستين. وكان مروان يومئذٍ ابن أربعٍ وستين سنة، وكانت ولايته على الشام ومصر لم يَعْدُ ذلك ثمانية أشهر، ويقال: ستة أشهرٍ[1].

كان مروان من التابعين إذ وُلد في السنة الثانية للهجرة، وقبض رسول الله، ﷺ، وهو ابن ثمانٍ.

أخرج له البخاري في صحيحه وعن المسور بن مخرمة عن جماعة من الصحابة حديث صلح الحديبية.

وروى مروان عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: (من وهب هبةً لصلة رحمٍ فإنه لا يرجع فيها).

---

(١) طبقات ابن سعد.

وروى أيضاً عن عثمان، وزيد بن ثابت، وسهل بن سعد الساعدي، وبُسْرة بنت صفوان.

وروى عنه ابنه عبد الملك، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وعلي زين العابدين بن الحسين.

وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم، ويعمل بما يجمعون له عليه. وجمع الصيعان فعاير بينها حتى أخذ أعدلها فأمر أن يُكال به، فقيل: صاع مروان، وليست بصاع مروان، إنما هي صاع رسول الله، ﷺ. ولكن مروان عاير بينها حتى قام الكيل على أعدلها[1].

عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص:

والدة عبد الملك، وهي ابنة ابن عم أبيه، فعبد الملك أموياً أباً وأماً.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الفصل الثاني

إخوة عبد الملك

تزوّج مروان بن الحكم خمس نساء عدا أمهات الأولاد، فأنجبن له ثلاثة عشر ولداً ذكراً وثلاث نسوة، فهم إخوة عبد الملك.

أولاً: الأبناء: وهم:

١ ـ عبد الملك:

قد سبق الحديث عنه، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

٢ ـ معاوية:

شقيق عبد الملك، فأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة، ويكنى أبا المغيرة، وكان ضعيفاً، وله من الأولاد: المغيرة، وعبد الملك، وبشر.

٣ ـ عبد العزيز:

وأمه ليلى بنت زبّان بن الأصبغ بن عمرو من بني

كلب. ويكنى أبا الأصبغ، ومات ابنه الأصبغ قبله. وتزوّج عبد العزيز أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وأنجبت له عمر بن عبد العزيز الذي ولي الخلافة، كما أنجبت له عاصماً وأبا بكرٍ.

وكان أبوه مروان قد عقد بولاية العهد لابنه عبد الملك بن مروان وبعده لابنه عبد العزيز بن مروان، وولاّه مصر فأقرّه عليها أخوه عبد الملك فاستقل بها عشرين سنةً. وثقل على عبد الملك مكانه فأراد خلعه ليبايع لابنيه الوليد وسليمان بالخلافة بعده فمنعه من ذلك قَبيصة بن ذؤيب، وكان عنده على ديوان الخاتم، وكان يكرمه ويجلّه، فكفّ عن ذلك. وتوفي عبد العزيز بمصر سنة خمسٍ وثمانين في جمادى الأولى، قبل أخيه عبد الملك، وبلغ خبر موته أخاه عبد الملك ليلاً، فلما أصبح دعا الناس فبايع للوليد بالخلافة من بعده ثم لسليمان من بعد الوليد.

وسار عبد العزيز بن مروان بمصر سيرةً حسنةً، فبنى مقياس النيل، وأقام قنطرةً على خليج أمير المؤمنين (الترعة التي تصل بين خليج السويس وبين النيل شمال الفسطاط)، وعُني بمدينة حلوان، وحاول أن ينقل مركزه إليها. وكان كريماً.

روى عن أبيه، وعن أبي هريرة، وعقبة بن عامر،

وعروة بن الزبير، وروى عنه ابنه عمر، والزهري، وكثير بن مُرّة، وعلي بن رباح، وابن أبي مليكة، وبَحير بن ذاخر المعافري (وكان من حرسه).

وثّقه ابن سعد، والنسائي، وله حديث في سنن أبي داود.

قال سويد بن قيس: بعثني عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر، فجئته بها ففرّقها.

قال ابن أبي مليكة: شهدت عبد العزيز عند الموت يقول: يا ليتني لم أكن شيئاً يا ليتني كهذا الماء الجاري. وقيل: قال: هاتوا كفني، أفٍ لك ما أقصر طويلك، وأقل كثيرك.

وعن حماد بن موسى، قال: لما احتضر عبد العزيز، أتاه البشير يُبشِّره بماله الواصل في هذا العام، فقال: مالك؟ فقال: هذه ثلاث مائة مُدْيٍّ من ذهب. قال: مالي وله، لوددت أنه كان بعراً حائلاً بنجد.

وكانت له دار بدمشق إلى جانب الجامع، هي السُّمَيَّساطِيّة[1].

---

(١) السميساطية: نسبة إلى السميساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الحبشي المتوفى عام ٤٢٣هـ، وقد اشتراها حين قدم دمشق. وسميساط قلعة على نهر الفرات بين قلعة الروم وملاطية.

٤ ـ بشر:

وأمه قُطَيّة بنت بشر بن عامر بن مالك من بني كلاب، ويكنى أبا مروان.

أحد الأجواد، ولي العراقين لأخيه عبد الملك عند مقتل مصعب. وداره بدمشق عند عقبة الكتان.

كتب لأخيه: إنك شغلت إحدى يدي بالعراق وبقيت الأخرى فارغة. فكتب إليه بولاية الحرمين واليمن. فما جاءه الكتاب إلا وقد وقعت القرحة في يمينه. فقيل: اقطعها من المفصل، فجزع. فبلغت المرفق، ثم أصبح وقد بلغت الكتف ومات. فجزع عليه عبد الملك، وأمر الشعراء فرثوه[١].

كان كريماً ممدحاً، وكانت داره بعقبة الصوف، وإليه ينسب دير بشر الذي عند حجيرا، وله يقول الشاعر:

يا بشر يا ابن العامرية ما
خلق الله يديك للبخل

جاءت به عجزاً مقابله
ما هو من جرم ولا عكل

---

(١) سير أعلام النبلاء.

وأمه قُطَيّة بنت بشر بن عامر ملاعب الأسنّة، وكان بشر من القيسية. وقال الضحاك العيابي: خرج أيمن بن خريم فأتى بشر بن مروان، فلما وصل إلى بابه نظر إلى الناس يدخلون عليه من غير استئذانٍ، ورأى أن ليس على بابه حجاب ولا ستر، فلما تمثّل بين يديه أنشأ يقول:

يرى بارزاً للناس بشر كأنه
إذا لاذ في أثوابه قمر بدر
بعيد مرآة العين ما ردّ طرفه
جدار الغواشي رجع بابٍ ولا ستر
ولو شاء بشر غلق الباب دونه
طماطم سود أو صقالبة حمر
ولكن بشراً يسر الباب للتي
يكون له في جنبها الحمد والشكر

فلما أنشده الأبيات قال: إنما يحتجب الحرم، وأجزل له العطية، وصرفه[1].

قال الحسن: قدم علينا بشر البصرة، وهو أبيض نقي، أخو خليفة، فلما استقرّ أتيت داره، فلما نظر إليّ

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير.

الحاجب قال: من أنت يا شيخ؟ قلت: الحسن البصري، فقال لي: ادخل على الأمير، وإيّاك أن تطيل الحديث معه، واجعل الكلام الذي يدور بينك وبينه موجزاً، ولا تُملّه في المجالسة فتثقل عليه. قال: فدخلت الدار فإذا سرير عليه فرش، وعليه رجل يكاد أن يغوص فيها، وإذا رجل متكئ على سيفٍ قائم على رأسه، فسلمت عليه، فقال: من أنت يا شيخ؟ قلت: الحسن البصري الفقيه. فقال: أفقيه هذه المدينة؟ قلت: نعم أيها الأمير. قال: فاجلس، ثم قال: ما تقول في زكاة أموالنا أندفعها إلى السلطان أم إلى الفقراء؟ فقلت: أي ذلك فعلت أجزأ عنك. قال: فتبسّم، ثم رفع رأسه إلى من كان على رأسه، وقال: لشيءٍ ما يسود من يسود. ثم جعل يديم النظر إليّ، فإذا مِلت بطرفي إليه صرف بصره عني، وإذا أطرقت أبدى نظره، ثم استأذنت بالانصراف، فقال لي: مصاحباً محفوظاً، ثم عدت بالعشي فإذا هو قد أغدر من سريره إلى صحراء مجلسه، وإذا الأطباء حواليه، وإذا هو يتململ تململ السليم، فقلت: ما للأمير؟ قالوا: محموم. ثم عدت من غدٍ، وإذا الناعية تنعاه، وإذا الدواب قد جُزّت نواصيها، فقلت: ما للأمير؟ قالوا: مات. فَحُمِلَ ودُفن في جانب الصحراء، فجاء الفرزدق، ووقف على قبره، فقال:

أعـيـنـيّ ألا تُـسـعـدان الـمـكـمـدا
فـمـا بـعـد بـشـرٍ من عـزاء ولا صبر
وقـلا مـن عـنـا عـبـرةٍ تـذرفـانـهـا
على أنها تشفي الحرارة في الصدر
ولو أن قوماً قاتلوا الموت قبلنا
بشيءٍ لقاتلنا المنية عن بشر
ولـكـن فـجـعـنـا والـرزية مـثـلـه
بـأبـيـض مـيـمـون الـنـقـيـبـة والأمـر
فإن لا تكن هند بكته فقد بكت
عـلـيـه الـثـريـا في كـواكـبـهـا الـزهـر
أغـر أبـو الـعـاصـي أبـوه كـأنـمـا
تـفـرّجـت الأبـواب عـن قـمـرٍ بـدر
نمته الروابي من قريشٍ ولم تكن
له من كليب ذات قربى ولا صهر
ألـم تـر أن الأرض هُـدّت جـبـالـهـا
وأن نجوم الليل بعدك لا تسري
ومـا أحـد ذو فـاقـةٍ كـان مـثـلـنـا
إلـيـه ولـكـن لا بـقـيّـة لـلـدهـر
سقـانـي أمـيـر الـمـؤمـنـين مـصـيـبـةً
وتمضي إلى عبد العزيز إلى مصر

فإن أبا مروان بشراً إذا ثوى
لغير متبوع بمنٍّ ولا غدر
وقد كان حيّات العراق يخفنه
وحيات ما بين المدينة فالفهر

قال: فما بقي أحد على القبر إلا خرّ باكياً[1].

لما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير، ودخل الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني قد استعملت عليكم رجلاً من أهل بيت لم يزل الله عزّ وجلّ يحسن إليهم في ولايتهم، أمرته بالشدّة والغلظة على أهل المعصية، وباللين على أهل الطاعة، فاسمعوا له وأطيعوا، وهو بشر بن مروان، وخلفت معه أربعة آلاف من أهل الشام، منهم روح بن زنباع الجذامي، ورجاء بن حيوة الكندي، ثم نزل المنبر.

واستخلف عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، ثم عزله، وولّى بشراً البصرة مع الكوفة.

وحكى الحكم بن هشام أن بشراً لما ولي العراقين

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير.

كتب إلى أخيه عبد الملك: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك أشغلت إحدى يدي وهي اليسرى، وبقيت اليمنى فارغةً لا شيء فيها. فكتب عبد الملك إليه: إن أمير المؤمنين قد أشغل يمينك بمكة والمدينة والحجاز واليمن، فما بلغه الكتاب حتى بلغت القرحة في يمينه، فقيل: إنه لفظها من مفصل الكف فجذع، فما أمسى حتى بلغت المرفق، ثم بلغت الكتف، فاختلط عقله من الخوف، فكتب إلى عبد الملك: أما بعد يا أمير المؤمنين فإني كتبت إليك وأيامي أول يومٍ من الآخرة وآخر يومٍ من أيام الدنيا، ثم قال:

شكوت إلى الله الذي قد أصابني
من الضرّ مما لم أجد لي مداويا
فؤاد ضعيف مستكين لما ألمّ به
وعَظْمُ يدٍ خلوٍ من اللحم عاريا
فإن مت يا خير البرايا فالتمس
أخاً لك يُغني عنك مثل غنائيا
يواسيك في السراء والضرّ جهده
إذا لم تجد عند البلاء مواسيا

كانت ولاية بشر على العراق سنة أربع وسبعين، ومات في أول سنة خمسٍ وسبعين، وكانت ولايته على

الكوفة إلى أن جُمعت له العراق بعد مقتل مصعب نحواً من شهرين، وعاش نيفاً وأربعين سنة.

وقدم الحجاج البصرة بعد بشر.

قال أبو وائل: لما حضرت بشر الوفاة قال: والله لوددت أني كنت عبداً حبشياً، يتناوب أهل البادية ملكه، أرعى عليهم غنمهم، ولم أكن فيما كنت فيه من الإمارة. فلما بلغ شقيقاً قوله، قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم، إنهم ليرون فينا عبراً، وإنا لنرى فيهم عبراً[1].

٥ ـ عبد الرحمن:

مات صغيراً، وهو شقيق بشر، أمه قُطَيّة بنت بشر بن عامر.

٦ ـ أبان:

أمه أم أبان بنت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وقد كان أمير البلقاء. وولي لعبد الملك فلسطين، وكان الحجاج على شرطه.

٧ ـ عبيد الله:

شقيق أبان.

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير.

٨ ـ عبد الله:

شقيق أبان، مات صغيراً.

٩ ـ أيوب:

شقيق أبان وأشقائه.

١٠ ـ عثمان:

شقيق أبان.

١١ ـ داود:

شقيق أبان. ويكنى أبا سليمان، وكان أعور.

١٢ ـ عمرو:

وأمه زينب بنت أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وليس له عقب.

١٣ ـ محمد:

وأمه أم ولد تدعى زينب وهو أبو مروان آخر خلفاء بني أمية. كان مفرط القوى، شديد البأس، موصوفاً بالشجاعة، كان أخوه عبد الملك يغبطه على ذلك ويحسده، وربما قابله بما يكره، فغضب وتجهز للرحيل إلى أرمينية، وأتى يُودّع أخاه الخليفة، فقال: أقسمت عليك إلا ما أقمت، فلن ترى بعدها ما تكره. وله حروب

ومصافات مشهودة مع نصارى الروم. وقاتل إبراهيم بن الأشتر، ومصعب بن الزبير، وهو أشدّ بني مروان.

ثانياً: البنات: وهنّ:

١ ـ أم عمرو:

وأمها عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، فهي شقيقة عبد الملك.

٢ ـ أم عثمان:

وأمها ليلى بنت زبّان بن الأصبغ من بني كلب فهي شقيقة عبد العزيز.

٣ ـ رملة:

وأمها أم أبان بنت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فهي شقيقة أبان.

زوجات مروان وأبناؤه

١ ـ عائشة بنت معاوية ابن المغيرة

١ ـ عبد الملك.
٢ ـ معاوية
٣ ـ أم عمرو

٢ ـ ليلى بنت زبّان

١ ـ عبد العزيز.
٢ ـ أم عثمان

٣ ـ قُطَيّة بنت بشر

١ ـ بشر.
٢ ـ عبد الرحمن

٤ ـ أم أبان بنت عثمان

١ ـ أبان.
٢ ـ عبيد الله.
٣ ـ عبد الله.
٤ ـ أيوب.
٥ ـ عثمان.
٦ ـ داود.
٧ ـ رملة.

٥ ـ زينب بنت أبي سلمة

١ ـ عمرو.

٦ ـ زينب (أم ولد)

١ ـ محمد.

الفصل الثالث

زوجات عبد الملك

تزوج عبد الملك عشر نساء عدا أمهات الأولاد.

١ ـ ولاّدة بنت العباس بن جزء بن الحارث من بني عبس: وأنجبت له: الوليد، وسليمان، ومروان الأكبر، وعائشة. واشتهرت ولاّدة بكنيتها أم الوليد.

٢ ـ عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموية: وأنجبت له: يزيد، ومروان، ومعاوية، وأم كلثوم.

٣ ـ أم هشام بنت إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية: وقيل اسمها (عائشة)، وأنجبت هشاماً.

٤ ـ عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمية، وأنجبت له أبا بكر (بكار).

٥ ـ أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموية: وأنجبت له الحكم.

٦ ـ أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص: وأنجبت له فاطمة.

٧ ـ شقراء بنت سلمة بن حلبَس الطائية: ولم تنجب له.

٨ ـ أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمية: وطلّقها فتزوّجها علي بن عبد الله بن العباس.

٩ ـ ابنة لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

١٠ ـ ابنة لمحمد بن يوسف الثقفي، أخي الحجاج بن يوسف، وأنجبت له الحجاج.

هذا بالإضافة إلى أمهات الأولاد.

الفصل الرابع

أولاد عبد الملك

كان لعبد الملك بن مروان ستة عشر ولداً من الأبناء الذكور، وثلاث من البنات.

أولاً: الأبناء: وهم:

١ ـ الوليد:

أمه ولاّدة، أم الوليد، بنت العباس بن جزء بن الحارث العبسية، ويكنى أبوه به، وقد ولي الخلافة بعد أبيه، وسنفرد له بحثاً خاصاً ـ إن شاء الله ـ.

٢ ـ سليمان:

شقيق الوليد، ولي الخلافة بعد أخيه الوليد، وسنفرد له بحثاً خاصاً ـ إن شاء الله ـ.

٣ ـ مروان الأكبر:

شقيق الوليد، وقد مات صغيراً.

٤ ـ يزيد:

وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وقد ولي الخلافة بعد ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وسنفرد له بحثاً خاصاً ـ إن شاء الله ـ.

٥ ـ مروان:

شقيق يزيد.

٦ ـ معاوية:

شقيق يزيد، وقد مات صغيراً.

٧ ـ هشام:

وأمه أم هشام (عائشة) بنت إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية، وقد ولي الخلافة بعد أخيه يزيد. وسنفرد له بحثاً خاصاً ـ إن شاء الله ـ.

٨ ـ أبو بكر (بكار):

وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمية.

٩ ـ الحكم:

وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان، وقد مات صغيراً.

١٠ ـ عبد الله:

وأمه أم ولد. وولي مصر لأبيه بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان.

١١ ـ مسلمة:

وأمه أم ولد، وقيل: هي بنت قسطنطين نفسه، أخذت بين السبايا، وكانت من نصيب عبد الملك، ولم تُعرف يومذاك، ولم تُعلن عن شخصيتها، حتى وقع قسطنطين نفسه بالأسر، فعرفت.

ويكنى أبا سعيد، وأبا الأصبغ، ويُلقّب: بـ(الجرادة الصفراء). وهو الأمير الضرغام، قائد الجيوش. له مواقف مشهودة مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية.

ولي العراق لأخيه يزيد، ثم أرمينية. وغزا الترك والسند سنة تسعٍ ومائة.

حكى عنه يحيى بن يحيى الغساني، وله حديث في سنن أبي داود، وكان ميمون النقيبة، وكان أهلاً للخلافة، وفيه يقول أبو نخيلة:

أَمَسْلَمُ إني يا ابن خير خليفةٍ
ويا فارس الهيجاء يا جبل الأرض
شكرتك إن الشكر حبل من التقى
وما كل من أَوْلَيْتَهُ نعمةً يُغضي

وأَحسنتَ لي ذكري وما كنت خاملاً
ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

ومات مسلمة سنة عشرين ومائة.

١٢ ـ المنذر:

وأمه أم ولد.

١٣ ـ عنبسة:

وأمه أم ولد.

١٤ ـ محمد:

وأمه أم ولد.

١٥ ـ الحجاج:

وأمه أم ولد، وقيل: بل أمه ابنة لمحمد بن يوسف الثقفي، أخي الحجاج. وينسب إليه قصر الحجاج خارج باب الجابية. ومحلته يقال لها قصر الحجاج إلى اليوم، وكان أميراً على دمشق.

١٦ ـ سعيد:

ويلقب بـ(سعيد الخير)، وأمه أم ولد. ولي أمر فلسطين لأخيه الوليد، وولي الغزو في خلافة أخيه هشام، وكانت له أملاك قبلي المصلى بدمشق. وكان

حسن السيرة، وإذا أقبل الليل وضع ثيابه، ولبس ثوبي شعر، وقام يصلي. وكان من محدثي الموصل، وكان عاملاً عليها، والمسجد المعروف بـ(عُبيدة) مسجده، وعُبيدة كان مُؤَذّن المسجد فنُسب إليه. وكان يصاحب نُسّاك الكوفة.

لما ولي ابن عمه عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: سلّم الموصل إلى يحيى بن يحيى الغسّاني، وأقدم علينا.

غزا أرض الروم سنة خمسٍ ومائة، وغزا الصائفة سنة ستٍ ومائة.

استبق يوماً هو وحاتم بن الأسيد القليعي من الناعورة على فرسيهما، فسبقه حاتم، فكتب إليه أخوه هشام بن عبد الملك:

أخيل قليعي سبقنك ليتنا
جلبنا إليك الخيل من كل مجلب

فكتب إليه حاتم:

ألتّ[1] سعيداً أن سبقنا جياده
وضيعت ما ضيعت في أرض دابق

---

(١) ألتّ: أنقصت: ألت الشيء أنقصه.

ثانياً: البنات: وهنّ:

١ ـ عائشة:

شقيقة الوليد فأمها ولاّدة بنت العباس بن جزء العبسية، وقد تزوجها خالد بن يزيد بن معاوية.

٢ ـ أم كلثوم:

شقيقة يزيد: وأمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية.

٣ ـ فاطمة:

وأمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة. وقد تزوّجها ابن عمها عمر بن عبد العزيز.

زوجات عبد الملك وأبناؤه

١ ـ ولادة العبسية:

١ ـ الوليد.

٢ ـ سليمان.

٣ ـ مروان الأكبر.

٤ ـ عائشة.

٢ ـ عاتكة بنت يزيد:

١ ـ يزيد.

٢ ـ مروان.

٣ ـ معاوية.

٤ ـ أم كلثوم.

٣ ـ أم هشام المخزومية:

١ ـ هشام.

٤ ـ عائشة بنت موسى:

١ ـ أبو بكر (بكار).

٥ ـ أم أيوب بنت عمرو بن عثمان:

١ ـ الحكم.

٦ ـ أم المغيرة بنت المغيرة:

١ ـ فاطمة.

٧ ـ شقراء الطائية:

٨ ـ ابنة لعلي بن أبي طالب:

٩ ـ أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر:

١٠ ـ ابنة لمحمد بن يوسف الثقفي:

١ ـ الحجاج.

أمهات أولاد:

١ ـ عبد الله.

٢ ـ مسلمة.

٣ ـ المنذر.

٤ ـ عنبسة.

٥ ـ محمد.

٦ ـ سعيد.

الخاتمة

بعد هذا العرض عن تاريخ حياة التابعي، خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان يتبيّن لنا أنه كان صاحب دينٍ ومروءةٍ، ورجل حربٍ وقتالٍ، وذا إدارةٍ وسياسةٍ، وابن خبرةٍ وتجربةٍ عركته الأيام فأفاد منها، وطحنته الأحداث فأخذ العبرة منها.

ولم يكن دينه على شفا جرف هارٍ فانهار باستلام الخلافة، كما وصفه بعضهم.

قال ثعلب عن ابن الأعرابي: لما سُلّم على عبد الملك بالخلافة، كان في حجره المصحف، فأطبقه وقال: هذا فراق بيني وبينك.

وقيل: إنه لما رفع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد منك.

فهل يفعل هذا مسلم؟ فكيف وأنه كان أحد فقهاء المدينة؟ غير أن هذه الروايات ليس القصد منها النيل من عبد الملك فقط بل بصفته خليفة يُمثّل المسلمين، فيُقصد منها النيل من الإسلام، وأن المسلمين يتكلّمون بالمثالية

فإذا آل الأمر إلى أحدهم نسي ما كان يدعو إليه بالأمس، وهذه نماذج.

وليست المشكلة بالافتراءات ووضع الروايات فقط إذ أهداف أصحابها غدت معروفةً بل المشكلة في نقلها وإشاعتها من قبل رجالٍ ثقةٍ سواء أكان الهدف نقدها والردّ عليها أم غير ذلك حيث أن العامة تعرف مصدر سماعها، وتكتفي بما سمعت أو قرأت دون أن تتابع الردّ عليها. ولهذا تردّدت وشاعت بل وقُبلت أحياناً.

ولا شك أن عبد الملك بن مروان قد أخطأ خطأين كبيرين أولهما قتال عبد الله بن الزبير، والتمرّد عليه، ومفارقة الجماعة، إذ عدّه أنه كان مفارقاً للجماعة ومتمرداً على الطاعة أيام يزيد بن معاوية، وبقي كذلك أيام مروان الحكم وبعده. على حين لم يكن ابن الزبير متمرّداً على يزيد بن معاوية، ولا مخالفاً بل معتزلاً له، وعائذاً بالبيت لا يبغي شِقاقاً، ولا يُريد خِلافاً، ولا يعمل على الفرقة. فلما مات يزيد بن معاوية بويع عبد الله بن الزبير من قِبل المسلمين، وما قيام مروان بن الحكم إلا شِقاقاً وعصياناً، وكذا كان ابنه عبد الملك حتى قُتل ابن الزبير. وبعد تغلّب عبد الملك بويع من قِبل المسلمين عامةً وأصبح خليفةً شرعياً. فاجتهاد مروان وابنه

عبد الملك القائم على الخطأ أوقعهما في الخطأ الكبير.

أما الخطأ الثاني فهو سكوته على شدة الحجاج، وظلمه، وقصفه البيت الحرام، غير أن عبد الملك يرى في شدّة الحجاج إنما هي للمحافظة على شرعية الخلافة من وجهة نظره الخاصة.

ويرى أن الحجاج يعمل لعدم فرقة الأمة، وهو منطلق شرعي وأساسي وفي سبيل تحقيقه وقعت منه شدة في قتال ابن الزبير، وأقدم على ارتكاب أمرٍ خطيرٍ جداً اهتزّت له الأمة وهو ضرب البيت الحرام وقصفه بالمنجنيق، كما وقعت منه شدّة وظلم على الذين أيّدوا عبد الرحمن بن الأشعث الذي كادت حركته أن تشقّ الأمة وتُعيد الفتنة، وكان بينهم العلماء الذين دفعهم الظلم لتأييد ابن الأشعث، وإن كان هذا الاندفاع خطأ، ففرقة الأمة أكثر خطراً من ظلم ظالم مآله الزوال. كما رأى عبد الملك أن المنطقة التي يتولّى أمرها الحجاج لا يصلح مع أهلها إلا الشدّة إذ لا يلينهم إلا القوة، ولا يخضعهم إلا الظلم، ولا ينفع معهم إلا السيف ولو لم يفعل الحجاج ذلك لما هدأت فتن المنطقة، ولا عرفت الأمن، ولا شعر أهلها بالطمأنينة، ولا أحسّ سكانها بالاستقرار، فتصرّف الحجاج كان هو الدواء الناجع

للمنطقة، بل ما نجح في تسيير أمور هذه المنطقة إلا الولاة القساة، لذا اشتهروا وعُرفوا بالتاريخ على حين لم يُعرف غيرهم.

أما والأمر كذلك فإنا لا نقبل ما افتري عليه، ولكننا في الوقت نفسه لا ننسى أخطاءه، وإذا كنا قد وضعنا أيدينا على أخطائه فيجب ألا ننسى إيجابياته، فنكون قد أعطينا عبد الملك بن مروان حقه دون مدحٍ له ولا جورٍ عليه.

اللهم اجعلنا من أهل الإنصاف، وتوفّنا مع الأبرار، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المُحْتَوىٰ

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة